

الفصل الثالث  
الخطابة السياسية في العصر الأموي

obeikandi.com

## المبحث الأول

### تطور الخطابة إلى القرن الثاني الهجري

ازدهرت الخطابة السياسية في العصر الأموي وبرز خطباء فيها فاتسمت بخصائص شتى لم تجتمع للخطابة قبل الإسلام، ولا في عصر الإسلام، لهذا صح ان نعد تلك الحقبة مثالا للخطابة العربية الإسلامية، فقد جارت الخطابة الشعر في العصر الأموي، إذ تناولت شؤون الدولة العامة ومثلت السياسة أصدق تمثيل وأصبحت السلاح القولي الذي يعتمد عليه الساسة من الأحزاب المختلفة في الدعاية واستمالة القلوب اليهم وتهديد الخارجين عليهم، وقد تظافرت الخطابة والشعر على تحقيق هذه الغايات غير أن الشعر كان من عمل الدعاة والأعوان، أما الخطابة فكانت من عمل الساسة في أكثر الأحيان، وعليه فنقول كما قال المؤرخون إن الخلافة الإسلامية تحولت إلى دولة سياسية على يد بني أمية، فإن شعار الخلافة عندهم صولجان الملك وإن درة الخليفة في يدهم سيف الإمارة، ونرى كيف تحولت وحدة الدولة الدينية إلى حزبية وطائفية ومذهبية تتقاتل وتتناحر، وكيف كان ذلك داعياً إلى ظهور حركة أدبية قوية تمثلت في عناصرها المختلفة شخصيات تلك الأحزاب ومقوماتها السياسية والعقلية والنفسية، حينما تصدى كل حزب لنشر مبادئه والدفاع عن آرائه ودحض حجج خصومه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً فكانت الخطابة والشعر من أهم الوسائل إلى ذلك وأقربها، ونلاحظ كيف وجد المتصارعون في ميدان السياسة على اختلاف وجهاتهم عند الخطابة سلاحاً لا يقل، ووجدت الخطابة عندهم خير مؤئل وأوسع رحاب فاعتمدوا عليها جميعاً اعتماداً كبيراً، واستجابت لهم، فأعطتهم خير ما لديها من عون صادق وتأييد، فشهدت كل نزاع وكل صدام بين هذه الطوائف وخاضت معها كل معركة، وشاركتها في كل جولة حتى مثلت في النهاية الحياة السياسية، والحزبية خاصة، وجوانب الحياة عامة أصدق تمثيل، وتطورت الخطابة في هذه الدولة المتطورة وانها سايرت مراحل انتقالها المختلفة ومثلت أحوالها السياسية والدينية والاجتماعية بظهور خطباء كانت خطبهم تتناول هذه الجوانب الثلاثة، وكانت

الخطابة مرآة صادقة عكست هذا التحول، وسجلت مظاهره، وترجمت عن حقيقته على لسان خلفائها ورجالها، وان ما كانوا يسلكونه من مناهج في كلمهم تفصح عن خطابتهم، وكيف كان تاريخهم الذي اسلفنا القول عنه بالفصول السابقة متجلياً في هذه الخطابة، ومنها أو منهما معاً يتكامل التاريخ الصحيح لأيامهم ودولتهم، وكان بنى أمية يدافعون من خلال المنابر وأماكن الخطابة أو المناسبات التي تقتضي الخطبة عن احقيتهم في الخلافة فهذا معاوية ابن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية عام ٤١هـ يقول في إحدى خطبه إنه لا يقاتل أهل الكوفة من اجل صلاة أو زكاة أو حج لانهم يصلون ويزكون ويحجون فهو يصارح اهل الكوفة بانه لا يقاتل على فريضة من الفرائض وانما يقاتلهم من اجل الإمارة أي ليتأمر عليهم وعلى رقابهم رغم أنوفهم، وهذا سيد الشهداء الحسين بن علي عليهما السلام يقاتل من اجل الدين وانه هو واهل بيته أحق بالخلافة، وانه لم يخرج أشراً ولا بطراً وانما خرج من اجل إصلاح أمة جده محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، وسنتناول خطبة سيدنا الحسين واخته زينب الكبرى، ثم نتناول نموذج لخطب معاوية وبعض ولائه ومواليه مثالا للخطابة في العصر الأموي وكذلك نأخذ مثالا لخطب بعض زعماء الخوارج وقبل الخوض في هذا نبين العوامل التي أدت إلى ازدهار الخطابة في هذا العصر.

### عوامل ازدهار الخطابة في العصر الأموي

- ١- الأحزاب السياسية: تعددت الأحزاب السياسية من أمويين وزبيريين وخوارج وشيعة وقامت دعاية كل منها على الخطابة إذ كان لكل حزب خطباء هم سنته الناطقة باسمه.
- ٢- الحرية: وقد كانت حرية الرأي بالقول مكفولة، فيستطيع الخطيب أن يجهر برأيه في الناس، ولم يكن بُد في ذلك العصر من كثرة الخطباء، لان الأحداث كثيرة ومتلاحقة، ولأن الخطابة وسيلة التأثير في الجماهير، إذ كانت تقوم مقام الصحافة والإذاعة في العصر الحاضر. وهناك أسباب كفلت للناس حرية

القول منها أن معاوية مؤسس الدولة أعلن انه يسوس الناس بالحلم وسعة الصدر والتجاوز عن المساءة القولية فهو القائل (ان لم يكن إلا ما يشتفي به القائل بلسانه فقد جعلت له دَبْرَ أذني، وتحت قدمي)<sup>(١)</sup>.

وهو القائل (لو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت، كنت إذا شدوها أرخيتها، وإذا أرخوها شددتها)<sup>(٢)</sup>.

وقد تذرع بحلمه في كثير من الأوقات على معارضيه، والمتهجمين عليه وحاكاه كثير من خلفائه في تحلمهم، ومنها كذلك أن الأحزاب كانت تنعم بحريتها الكاملة، لأنها ليست في قبضة الحكومة وكيف لا يشعر بالحرية كاملة من يثور على الحاكم ويشن عليه الغارات؟ وإذا كانت الحكومة الأموية قد حاربت الأحزاب فان هذه الحروب كانت تؤرث الخطابة وتفسح مجال القول أمام الخطباء.

وكثيراً ما كانت الأحزاب في مواطن شتى، وكثيراً ما كانت بنجوة عن عيون الحكام وسلطانهم، ثم أن كثيراً من المنتميين إلى الأحزاب لم يكونوا يرهبون من إعلان رأيهم كما نجد في خطبة عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهما وفي خطبة عبد الله بن الزبير عند معاوية حينما أراد البيعة لابنه يزيد وعارضاه فيها ولم تكن هذه الشجاعة النفسية مقصورة على الزعماء أو المتحزبين فقد شهد أعرابي أمام معاوية بشيء كرهه، فقال معاوية: كذبت يا أعرابي، فقال الأعرابي الكاذب والله مُتَزَمِّلٌ في ثيابك، وحصَّب بعضهم المغيرة بن شعبه<sup>(٣)</sup> وهو يصعد المنبر واليأ من

(١) ينظر : ابن عبد ربه العقد الفريد، جـ ٢ ص ١٤ من خطبته في المدينة.

(٢) ينظر : اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، جـ ٢ ص ٢٨٣.

(٣) المغيرة بن شعبه: هو المغيرة بن شعبه بن أبي عامر بن مسعود الثقفي أبو عبد الله أحد دهاة العرب وقادتهم وولاتهم صحابي يقال له مغيرة الرأي ولد في الطائف سنة ٢٠ ق.هـ/ ٦٠٣م اسلم سنة ٥٥هـ واصبح والياً على البصرة من قبل الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثم والياً على الكوفة اعتزل الفتنة بين الإمام علي عليه السلام ومعاوية توفي في الكوفة سنة ٥٠هـ/ ٦٧٠م وله ١٣٦ حديثاً وهو أول من وضع ديوان البصرة (ينظر: الطبري تاريخ الرسل والملوك جـ ٦ ص ١٣١ ابن الاثير، الكامل في التاريخ جـ ٣ ص ١٨٢).

قيل معاوية، وتندر بعضهم بالحجاج لما صعد المنبر ومكث برهة لا يتكلم، ثم قال بعضهم له بعد سماع خطبته: إن صدقناك أرضينا الله، وإن غششناك أغضبنا الله، فغضبك أهون علينا من غضب الله.

وقال بعضهم لعبد الملك بن مروان وهو يخطب: اتق الله.

### الحروب والثورات

٣- وكانت الحروب والثورات مُذكية للخطابة، إذ كان القواد والقاتحون ذوي لسان يعتمدون عليه في تحميس جنودهم، وكان الثوار وقادتهم فصحاء يتخذون الخطابة سلاحاً من أسلحتهم ولهذا نجد كثيراً من الخطب موصولة بأحداث سياسية ووقائع حربية.

٤- فصاحة العرب: وكان العرب في ذلك العصر على قدر عظيم من المقدرة البيانية والبديهيّة المسعفة والفصاحة المتوارثة.

ذلك أن سليقتهم لم تكن قد فسدت، وحرصهم على لغتهم وأدبهم كان شديداً، وكان الخلفاء والأمراء ينشئون أبناءهم في البادية لتكفل لهم التربية لأن فيها منافع، منها فصاحة القول. ولعل معاوية قد توخى ذلك حينما بعث ابنه يزيد<sup>(١)</sup> عند أخواله بني كلب مع أمه ميسون<sup>(٢)</sup>. ولما وجد عبد الملك أن ابنه الوليد يلحن قال: أضرّ بالوليد حيناً له فلم ترسله إلى البادية.

وإذا كان داء اللحن قد دب إلى بعض الخطباء، فإنه كان ضئيلاً وقليلاً على أنه لم يفسد ملكة البيان، وتدفق التعبير، لانه خطأ أعرابي نادر.

---

(١) يزيد بن معاوية: هو يزيد بن أبي سفيان الأموي ثاني خلفاء بني أمية في الشام ولد سنة ٢٥هـ/ ٦٤٥م بالماطرون ونشأ بدمشق وولي الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٦٠هـ توفي سنة ٦٤هـ/ ٦٨٣م بحوارين (من أرض حمص) واليه ينسب نهر يزيد. ينظر: اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي ج٢ ص ١٦٨، المسعودي، مروج الذهب ج٢ ص ٦٧.

(٢) ينظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج١ ص ٢٩٣.

٥- تقرير الخطباء: وأذ كانت السياسية مشغلة العصر وكانت الخطابة من أعظم عدد السياسي، ارتفع شأن الخطابة والخطباء، وزاحموا بمقدرتهم الخطابية أبناء الأشراف والسادة، فلم تعد المناصب الكبار محبوسة على هؤلاء، ويظهر أن نزعة العربي إلى الفخر بسيفه ولسانه منذ الجاهلية ما زالت عظيمة السلطان في العصر الأموي يدل على ذلك أن يزيد بن معاوية امتنَّ على زياد بن أبيه<sup>(١)</sup> بقوله ((لقد نقلناك من ولاء تقيف إلى عز قریش، ومن عبید<sup>(٢)</sup> إلى أبي سفيان، ومن القلم إلى المناير)).

٦- على أن الخطابة ازدهرت لأسباب أخرى منها الجدل المحتدم بين الفرق الدينية ومنها كثرة الوفود على الخلفاء والولاة وقيام بعض الوعاظ بالخطابة في المساجد ووعظ الناس منذ أن نصبهم معاوية لهذا الغرض ومنها إقبال البلغاء على القرآن الكريم يحفظون، ويتذوقون ويدرسون، ونماء الثقافة اللغوية والأدبية في تلك الحقبة والعناية بحفظ ما خلف السابقون وقد أشار الجاحظ في كتابه البيان

---

(١) زياد بن أبيه: هو زياد بن أبيه، أمير من الدهاة القادة الفاتحين الولاة من اهل الطائف ولد سنة ١هـ اختلف في اسم ابيه فقيل عبید الثقفي وقيل أبو سفيان واهم سمية وهي جارية الحارث بن كلدة الثقفي وكان كاتباً للمغيرة بن شعبة ولاء الأمير علي عليه السلام فارس والحقه معاوية بنسبه سنة ٤٤هـ توفي سنة ٥٣هـ / ٦٧٣م. (ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج٦ ص ١٦٢ ابن عساكر، تهذيب ابن عساكر ج٤ ص ٤٠٦ ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج٣ ص ١٩٥).

(٢) عبید الله بن زياد بن أبيه: هو عبید الله بن زياد بن أبيه وال فاتح من الشجعان، جبار، خطيب ولد بالبصرة سنة ٢٨هـ / ٦٤٨م وكان مع والده لما مات بالعراق ولاء عمه معاوية خراسان سنة ٥٣هـ ثم أصبح والياً على البصرة وأقره يزيد بن معاوية على ولايته وطلب منه أن يقاتل الحسين عليه السلام فقتل الحسين على يده وكان يدعى ابن مرجانه قتله إبراهيم بن الأشتر في خازر من أرض الموصل سنة ٦٧هـ / ٦٨٦م. (ينظر: ابن قتبيبة، عيون الاخبار ج١ ص ٢٢٩، الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج٦ ص ١٦).

والتبيين<sup>(١)</sup> على أن بعض الخطب كانت مدونة وكان بعض الخطباء يحفظونها أو ينقلون منها.

### الخصائص الفنية للخطابة في العصر الأموي

إن الخصائص الفنية للخطابة في هذا العصر تتمثل في اللفظ والصورة والمضمون والمعنى والأسلوب، ففي اللفظ والصورة نرى سهولة الألفاظ والعبارات، وإشراقها وحسن ديباجتها، وسماحتها وفصاحتها وجمال وقعها، مع القوة والجزالة والرصانة، متأثرة في ذلك بالقرآن الكريم، متتبعة سبيل السلف الطيبين، وقد أعانها هذا مجافاة أهلها البداوة، وأخذهم بنصيب من حياة الحضارة واللغة كائن حي يؤثر فيما حوله، ويتأثر بما حوله وله كسائر الكائنات الحية، وقد تركت الحضارة آثارها في المظاهر المختلفة لحياة هؤلاء العرب بذلك العصر، كما نرى أحكام نسج العبارة، وقوة التأخي بين ألفاظها وملاءمتها لما تدل عليه من معنى، ودقة تعبيرها عنه، وتصويرها إياد، في عنفه وشدته ولينه ورقه، وقدرتها على المبالغة فيه عند الاقتضاء، وكم رأينا فيما عرضنا من خطب كيف يكون حسن انتظام الألفاظ والجمل الزاجرة الضخمة العنيفة القوية الأداء، المعبرة أدق تعبير عن المعاني المرغوبة في جودة من الصياغة، وعناية واضحة بحسن الوصف، وفي هذه الخطب ظاهرة واضحة هي انتقاء الألفاظ والجمل انتقاء يتمثل فيه قدرتها على الإفصاح عن شخصية الخطيب والدلالة على الحال القائمة ولذلك لا نجد في أكثر خطب الشيعة عنف الألفاظ وضخامة العبارة، ولا روعة التهويل في التصوير التي تغلب في خطابة الأمويين وتدل على بطش السلطان وقهر الطغيان، ونجد في خطب الخوارج العبارات المفصحة عن شدة إيمانهم واستماتتهم في الدفاع عن دعوتهم، ومن هنا ندرك أن قوة

(١) ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ج ١ ص ٢٠١.

الخطبة<sup>(١)</sup> ترجع إلى أسباب، أهمها شخصية الخطيب، وما يستدعيه المقام والاستعداد من سطوة السلطان أو قوة الإيمان، ومن الظواهر الواضحة في صورة الخطابة اللفظية أخذها من كلمات القرآن وعباراته، فليست بذلك رداء لا يبلى من الحسن والطلاوة والجدة، واتجاهاتها إلى جمال تقسيم الكلام، فأصابت به غاية محمودة وأما في المضمون والمعنى يتمثل في خطابة هذا العصر وضوح المعاني وقربها ودقتها وقوتها وجنتها واتساعها وعمقها وترتيبها، وقد كان لها من الأحداث العظيمة المختلفة المتلاحقة، والدعوات الكثيرة المتعارضة، ودواعي الحضارة الجديدة والظواهر الاجتماعية الحديثة التي زخر بها العصر، وافسح لها فيه المجال زاد وفيه من المعاني الجليلة القوية الجديدة المتجددة، يأخذ منها الخطباء، فشققوا تلك المعاني ورتبوها، وتوسعوا فيها، واعانهم على هذا ما لمسناه بخطابهم ما رصانة الحسن، وصدق الشعور، وحرارة العاطفة، وقوة الإيمان، والحماسة للعقيدة، فجاءت صادقة، جارية على السليقة والطبع. وكان في استجابة الألفاظ لهذه المعاني تكريم لها وصيانة، فبرزت في أحسن معارضها، وحليت في أجمل ثيابها، مما ضمن لها التوفيق في إصابة مواضعها وغايتها، وأما الأسلوب فقد كان مجلياً لخصائص كثيرة من أهمها القوة ووضوح الدلالة والمقدرة البيانية الفائقة، والافتتان في القول اللذان اتاحا أن يرتجل خطبة طويلة خالية من الرأء وكذلك قدرة الخطابة على تصوير حياة العصر حتى لتقرأ فيها تاريخه واضحاً صادقاً غير مدخول بل صارت مصدراً لذلك لتاريخ.

وترى مئانة تأليف الخطبة وحسن تقسيمها إلى عناصرها وترتيب أجزائها وأفكارها ترتيباً منطقياً على نحو ما كان عند بعض الخطباء في العصر الأموي. وكذلك تبدو العناية بالتجويد والتنميق والتأنق في صياغة لخطب واضحة إلى ما فيها من ضروب المهارة البيانية وبراعة العرض، والقصد إلى إبراز المعاني في صورة

(١) ينظر د. محمد طاهر دروش، الخطابة في صدر الإسلام ص ٤٢٩.

فنية باهرة. وكذلك من خصائص الخطابة في هذا العصر زول الفوارق الأسلوبية بين الخطابة أي بين خطابة البدو وغيرهم، فلم نعد نرى في خطابة الوفود ذلك الغريب النافر من الألفاظ ولا تلك الجفوة الخشنة في الخطاب عند المقارنة بين خطب الوفود على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم والوفود على خلفاء بني أمية في هذا العصر، ولكن الصنعة البيانية قد ظهرت في محيط الخطابة بما يبدو فيها من رعاية الإيقاع الصوتي، والقصد إلى التوافق الموسيقي والإكثار من التكرار والترادف، كما نرى زيادة اعتماد خطباء هذا العصر على التشبيهات والاستعارات العجيبة وفشا ذلك فيها وعنوا عناية واضحة برسم الصور البيانية القوية وعرض الرسوم المتحركة وتشخيص المعاني، وكذلك نجد أن الخطباء في هذا العصر قد اخذوا من القرآن اقتباساً وتضميناً واستشهاداً وأكثروا في ذلك في خطبهم كما نجد أنهم احسنوا التمثيل بالشعر وأكثروا منه، قصد المبالغة والتأثير ولأن الشعر كان قد استعاد في هذا العصر مكانته واسترد دولته والناس إذ ذاك بين خطيب وشاعر وراوي، وكذلك لجأ الخطباء إلى ضرب الأمثال بخطبهم وقد خطب عبد الملك بالمدينة خطبة طويلة بناها على مثل من الأمثال السائرة واستخدمتها كذلك أم كلثوم<sup>(١)</sup> بنت علي ابن أبي طالب رضي الله عنها وعن أبيها في خطابتها، وكان العصر الديني أي عصر النبوة والخلافة الراشدة قد أهملها وأطرحها. وكان للخطابة في هذا العصر عناية بحسن المقاطع والازدواج وتساوي الفواصل والسجع ورعاية للإيقاع الموسيقي وتقصير الجمل يهدف ذلك كله إلى قوة الوقع وعمق التأثير كما يرمي إلى يسر حفظه وروايته، ولذلك نراه يكثر في الخطب التي ترسم سياسة عامة. وكذلك غلب السجع

(١) أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب: من فواصل نساء عصرها، ولدت قبل وفاة رسول الله صلى الله عليه = وسلم وخطبها عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكانت صغيرة وتزوجها في ذي القعدة سنة ١٧هـ. وولدت له زيد ورقية ثم تزوجت عون بن جعفر بعد وفاة عمر رضي الله عنه ولها رائعة في مقتل أخيها الشهيد الحسين عليه السلام في أهل الكوفة سنة ٦١هـ (ينظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى م ٨ ص ٤٦٢، عمر رضا كحالة، اعلام للنساء ج٤ ص ٢٥٥ - ٢٤٦).

وبدا فيه الصنعة والافتعال وشابه به سجع الكهان والمنتبئين بما فيه من إيهام وأغراب وأقسام. ونجد في خطب. هذا العصر الإيجاز اللائق بصاحب السلطان والإطناب في موضع الإطناب، وعليه فإن الخصائص الفنية للخطابة في العصر السياسي الأموي تشمل الإعداد وذلك تتم خطب كثيرة عن العناية بإعدادها والتأني في صوغها، والتدبر في ترتيب أجزائها، وتنسيق أفكارها والتأنق في أسلوبها. وقد عرف شيء من هذا قبل العصر الأموي فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه تحدث عن اجتماع يوم السقيفة بقوله (كنت قد زوّدت - أعددت - كلاماً لأقوله، فقال لي أبو بكر: على رسلك، وتكلم هو: فلم يترك شيئاً ما كنت أريد أن أقوله)<sup>(١)</sup> وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يشعر بان لخطبة النكاح بخاصة مشقة، يقول (ما يتصعدني كلام كما تتصعد في خطبة النكاح)<sup>(٢)</sup>.

وروي أن عثمان بن عفان رضي الله عنه صعد المنبر، فأرتج<sup>(٣)</sup> عليه فقال أن ابا بكر وعمر كانا يعدان لهذا المقام مقالاً، وانتم إلى إمام عادل أحوج منكم إلى إمام خطيب، ومعنى هذا أن الشيخين كانا يعدان خطبهما وأن عثمان رضي الله عنه لم يكن قد استعد لذلك. وما زال الإعداد طابع كثير من الخطب في العصر الأموي فقد روي أن الخوارج طلبوا من عبد الله بن وهب الراسبي<sup>(٤)</sup> يوم ولوه رياستهم أن

(١) ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٣ ص ٢٠٠.

(٢) ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ج ١ ص ١١٧ و ١٢٤. تصعده الأمر أي شقّ عليه وقد ذكر الجاحظ انه يعرض للخطيب في خطب الاملاك من الحصر اكثر مما يعرض لصاحب المنبر. ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ج ١ ص ١٣٤.

(٣) ينظر: الجاحظ البيان والتبيين ج ١ ص ٣٤٥.

(٤) عبد الله بن وهب الراسبي: هو عبد الله بن وهب الراسبي من الأزدي من أئمة الإباضية كان ذا علم ورأي وفصاحة أدرك النبي صلى الله عليه وسلم وشهد فتوح العراق ثم كان مع علي عليه السلام في حروبه وكان ممن انكر التحكيم واجتمع مع الخوارج بالنهروان (بين بغداد وواسط) قتل في هذه الموقعة سنة ٢٣٨ هـ - ٦٥٨ م. ينظر: المبرد، أبو العباس محمد بن زياد الأزدي (ت ٢٨٦ هـ / ٨٩٩ م) الكامل في اللغة والأدب نشر: زكي مبارك وأحمد محمد شاكر، مطبوعات البابي الحلبي، (مصر، ١٩٣٦) ج ٢، ص ١١٩. الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨ هـ / ١١٥٥ م) الملل والنحل، صححه وعلق عليه: الأستاذ الشيخ أحمد فهمي محمد ط، (الجيزة، ١٩٤٨ م)، ج ١، ص ١١٧. الزركلي، الاعلام، ج ٤ ص ٢٨٨، عبد الحميد، عرفان، (الناكسور) دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية المطبعة الوطنية، (بغداد، ١٩٧٧ م) ص ٩٦.

يخطب فيهم فقال (وما أنا والرأيُ الفطين والكلام القضيبي)<sup>(١)</sup> وتواردت الأخبار بان  
واصل بن عطاء كان يخطب فيتجنب الرأء في كلامه لانه كان الثغ، فهل كان يتجنبها  
دائماً بغير إعداد وتفكير وتدبر؟

وقيل لعبد الملك بن مروان: تعجل عليك الشيب يا أمير المؤمنين فقال: وكيف  
لا يعجل عليّ وأنا أعرض عقلي على الناس في كل جمعة مرة أو مرتين<sup>(٢)</sup>؟ يريد  
خطبة الجمعة وغيرها ما يعرض الأمور. وقال الكميّ بن زيد<sup>(٣)</sup> وكان خطيباً- إن  
للخطبة سعداء وهي على ذي اللب أرمي ويعلق الجاحظ على هذا بقوله "ولم أر  
الكميّي أفصح عن هذا المعنى، ولا تخلص إلى خاصته، وانما يجتزئ على الخطبة  
الغيرّ الجاهل الماضي الذي لا يثنيه شيء، أو المطبوع الحاذق الواثق بغزارته  
واقتراره"<sup>(٤)</sup>. وان آثار الإعداد الواضحة في كثير من خطب هذا العصر كخطب  
الحجاج وزياد وعبد الملك وابي حمزة الخارجي لان هذه الخطب موحدة الموضوع  
مرتبة الأفكار، جيدة الأسلوب، متوازنة الجمل، معتمدة على ألوان من الخيال، بها  
سجع مقصود لكنه غير مستكره، ولا متكلف وبعضها يشتمل على مقدمة تمهد  
للموضوع يتخذها الخطيب مجازاً إلى الموضوع نفسه، ولقد يمزج الخطيب  
بالموضوع تدليله على رأيه، وتفنيد له دعوى خصمه ثم يختم الخطبة بعبارات يلخص  
بها موضوعه أو يستميل السامعين ويستثيرهم كما نجد في خطبة<sup>(٥)</sup> الحجاج بالكوفة

(١) ينظر: الجاحظ البيان والتبيين ج ١ ص ٢٠٥.

(٢) ينظر: م . ن ، ج ١ ص ١٣٥.

(٣) الكميّي بن زيد: هو الكميّي بن زيد بن خنيس الأسدي أبو المستهل شاعر الهاشميّين من اهل الكوفة  
وكان منحازاً إلى بني هاشم في العصر الأموي كان خطيب بني أسد وفقه الشيعة. (ينظر: أبو فرج  
الإصفيهاني، الأغاني، ج ١٥ ص ١٠٨ البغدادي، عبد القادر بن عمر، (ت ١٠٩٣هـ/ ١٦٨٣م)، خزانة  
الأدب ولب = لباب لسان العرب تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد ط ١، مطبعة بولاق، (القاهرة،  
١٢٩٩هـ) ج ١، ص ص ٦٩-٧٠ و ٨٦.

(٤) ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين ج ١ ص ١٣٤.

(٥) ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ٢١٠.

التي سنكتبها كنموذج لخطب هذا العصر السياسية وكذلك خطبة<sup>(١)</sup> أبي حمزة الخارجي في المدينة التي سنوردها في هذا البحث وعليه لم يكن من المصادفة أن تجيء هذه المراحل، بل هي ثمرة الإعداد والاستعداد.

(٢) الافتتاح : أما افتتاح الخطب فقد كان صورة من افتتاحها في عصر النبوة في الأعم الأكثر ( أ ) فأكثرها مبدوء بحمد الله والثناء عليه والصلاة والسلام على رسوله الكريم وهذه هي السمة الغالبة، حتى أنهم سمو الخطبة التي لا تبدأ بالحمد ببراء.

(ب) وبعضها مبدوء بالتهديد والوعيد، لتتبعى بغضب الخطيب وترهب السامعين بشديد عقابه كقول الحجاج (أيها الناس من أعياه داؤه، فعندي دواؤه، ومن استطال أجله، فعلي أن أعجله، ومن ثقل عليه رأسه وضعت عنه ثقله، ومن استطال ماضي عمره، قصرت عليه باقيه)<sup>(٢)</sup>، (ج) وبعض الخطب<sup>(٣)</sup> مبدوء بالشم والتوبيخ، لان المقام مقام تقيع وتأييب كقول زياد (أما بعد، فان الجهالة والجهلاء والضلالة العمياء، والفجور المرقد لأهله النار الباقي عليهم سعيها، ما يأت سفهاؤكم، من الأمور العظام ينبت فيها الصغير، ولا يتحاشى منها الكبير، كأن لم تسمعوا بأي الله ولم تقرأوا كتاب الله، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الأليم لأهل معصيته).

(د) وقد تبدأ<sup>(٤)</sup> بشعر خشن ينبئ عن صرامة وغلظة، كما فعل الحجاج في بدء خطبته بالكوفة.

(١) ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ج٢ ص١٢. أبو الفرج الاصفهاني، الأغاني، ج٢ ص١٠٤. ابن أبي الحديد، نهج البلاغة ج١ ص٤٥٩.

(٢) ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ج١ ص٢٢٠.

(٣) ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٦ ص١٢٤.

(٤) ينظر: م . ن، ج٧ ص٢١٠.

(هـ) وقد يبدأ الخطيب في هذا العصر بالموضوع مباشرة كما فعل سيدنا الحسين في خطبته لتي رد بها على معاوية إذ نال من والده عليّ عليه السلام ومن أخيه الحسن عليه السلام فرد عليه الحسن عليه السلام بقوله<sup>(١)</sup> (أيها الذاكر علياً، أنا الحسن، وأبي علي، وأنت معاوية وأبوك صخر، وامي فاطمة، وامك هند، وجدتي رسول الله صلى الله عليه وسلم وجدك عتبة<sup>(٢)</sup> بن ربيعة، وجدتي خديجة وجدتك قتيلة).

### (٣) العنف والتهديد

تتزرخ الخطابة السياسية في العصر الأموي بشن الحملات على الخصوم والتهجم عليهم وسبهم، واتهامهم بالضلال والكفر والفجور وتوعدهم بعقاب الله وتهديدهم بالثورة أو الانتقام، والفكرة الشائعة في كثير من الكتب التي أرخت للأدب أن هذه الظاهرة مقصورة على خطباء الحزب الأموي الحاكم، إذ انهم اعتمدوا على قوارص الكلم في إرهاب الثائرين، وزجر من تسول له نفسه أن يحدث فتنة أو يتمرد على الحكام. لكن الحقيقة أن في خطب الأحزاب الأخرى المعارضة للأمويين فيها أيضاً سباً وتهديداً فمن ذلك في خطب الأمويين قول معاوية بالمدينة بعد أن تولى

(١) ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ج٤ ص ١٦.

(٢) عتبة بن ربيعة: هو عتبة بن ربيعة بن عبد شمس أبو الوليد كبير قريش واحد ساداتها في الجاهلية، خطيباً نافذ القول نشأ يتيماً في حجر حرب بن أمية أصلح بين قبيلة هوازن وكنانة في حرب الفجار قتل في معركة بدر الكبرى سنة ٢هـ / ٦٢٤م (ينظر: المصعب الزبييري، المصعب بن عبد الله الزبييري بن المصعب، (ت ٢٣٦هـ / ٨٥٠) نسب قريش، تحقيق: ليفي بروفينسال، ط ٢، ١٩٧٦م، ص ١٢٥ و ١٥٣. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٢٢-١٢٤).

الخلافة (والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم، ولا قسرة بولايتي، ولكني جالدتكم بسيفي هذا مجالدة) (١).

وقول عتبة بن أبي سفيان (٢) بمصر (يا حاملي الأم أنوف رُكبت بين أعين والله لأقطعن بطون السياط على ظهوركم، فان حسمت ادواءكم، وإلا فان السيف من ورائكم) (٣).

ومنه في خطب الشيعة قول الحسن في رده على معاوية بسمع منه (لعن الله أخلنا ذكراً، وألا منا حسياً، وشرنا قديماً وحديثاً، وأقدمنا كفراً ونفاقاً) (٤).

ومنه في خطب الخوارج قول أبي حمزة في وصف سياسة معاوية ويزيد (ثم ولي معاوية لعين رسول الله وابن لعينه، وجلف من الأعراب وبقية من الأحزاب - ثم ولي بعده يزيد، يزيد الخمور، ويزيد الصقور، ويزيد الفهود، ويزيد الصيود الفاسق في بطنه - فخالف القرآن، وعمل بما يشتهي) (٥) ومنه ما ورد في خطب الزبيرين كقول عبد الله بن الزبير (أن أهل العراق عُذْرُ فُجْرٍ إِلَّا قَلِيلاً، وإن أهل الكوفة شرار أهل العراق) وقول عبد الله بن مطيع والي ابن الزبير على الكوفة (والله لا وقعن بالسقيم العاصي، ولأقيمن ذرء الاصغر المرتاب) (٦).

(١) ينظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد ج٢ ص ١٤٠.

(٢) عتبة بن أبي سفيان: هو عتبة بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس امير مصر وليها من قبل أخيه معاوية توفي في الاسكندرية في مصر سنة ٤٤هـ/٦٦٤م وقال الاصمعي: الخطباء من بني امية عتبة بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان. ينظر: المصعب الزبيري، نسب قریش ص ص ١٥٢-١٥٣، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ج١، ص ص ١٢٢-١٢٤.

(٣) ينظر: ابن حجر، تهذيب التهذيب ج١ ص ١٧.

(٤) ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ج٤ ص ٥٦.

(٥) ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج٢ ص ٥٦. ابن الجوزي، تاريخ الملوك والأمم، ج١٠، ص ٦٥.

(٦) ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج٦ ص ٢٧٣.

#### (٤) التخيل والتصوير

اتسمت الخطابة في العصر الأموي بمشابهتها الشعر في إبراز الأفكار وتوضيحا وتجسيما في قول من التخيل ومن التضاد وهي ( أ ) كالنشيبه في قول أبي حمزة الخارجي (وإذا قرأ أحدهم بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه)<sup>(١)</sup>.

وفي قول زياد (نظرت في أمور الناس منذ قتل عثمان فوجدتهم كالإضاحي، في كل عيد يذبحون).

وفي قول عبد الله بن الزبير (أستلمه الطغمام<sup>(٢)</sup>)، الصم الآدان، إسلام النعم المخطمة).

(ب) ومثل الاستعارة موجود في قول الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه (وان نقضتم عهدكم وخلعتم بيعتي من أعناقكم، فلعمري ما هي لكم بنكر)<sup>(٣)</sup>.

وقول الحجاج (أني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطاقها وأني لصاحبها).

(ج) ومثل الكناية واضح في قول أبي حمزة الخارجي في وصف أصحابه (شباب ثقيلة عن الباطل أرجلهم، باعوا انفساً تموت غداً بأنفس لا تموت أبداً، أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأتوفهم وصباهم، وفي قول الحسين بن علي ابن أبي طالب عليه السلام (ليكن كل رجل منكم حلساً من أحلاس بيته)<sup>(٤)</sup>.

(د) وقد يلجأ الخطيب إلى ضرب من الإثارة، إذ يعرض صورتين متضادتين، ليست إحداهما جزاء على الأخرى أو يعقد صلة حتمية بين عمليين أحدهما يرغب فيه جميع الناس والآخر يخشاه الناس، من الضرب الأول قول أبي

(١) ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك جـ ٢ ص ٥٦.

(٢) الطغمام بمعنى الاوغاد، المخطمة أي التي في أنوفها أزيمة تقاد بها. ينظر: ابو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص ١٨١.

(٣) ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك جـ ٦ ص ٢٢٩.

(٤) ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة جـ ٤ ص ١٤.

حمزة الخارجي (فيكم من عين في منقار طائر، طالما بكى بها صاحبها في جوف الليل من خوف الله، وكم من بد قد أبيت عن ساعدها، طالما اعتمد عليها صاحبها راعياً وساجداً، وكم من وجه رقيق، وجبين عتيق، قد فلق بعمد الحديد).

فهو يستثير السامعين على بني أمية، ويستدر عطفهم ومسراتهم على أنصاره من العباد الشجعان الذين قتلهم بنو أمية ومزقوا أشلاءهم بهذا التصوير الذي يرسم لهم عيوناً في مناقير الطيور، كانت كثيرة البكاء من خشية الله، وإيدياً مقطوعة مفصولة عن سواعدها، طالما اتكأ عليها أصحابها في الصلاة.

ومن الضرب الثاني قول زياد: (فمن غرق قوماً غرقناه، ومن حرق على قوم حرقناه، ومن نكب بيتاً نقبنا عن قلبه ومن نبش قبراً دفناه حياً فيه) ذلك أن بعض الذين يشكو منهم زياد يحبون أن يغرقوا غيرهم ويحرقوا دورهم ويسرقوهم أحياء وأمواتاً، ولكن الناس جميعاً يخافون هذا العقاب الرادع الذي جعله زياد من جنس الجريمة، ليكون ملائماً لها.

(هـ) وكذلك يجيء الطباق والمقابلة، فيزداد المعنى وضوحاً وتزداد الصورة جلاء ورسوخاً، مثل قول عتبة بن أبي سفيان (ولينا هذا الموضع الذي يضاعف الله فيه للمحسن الأجر وعلى المسيء الوزر)<sup>(١)</sup> وقول زياد (والله لأخذن الولي بالمولى والمقيم بالظاعن، والمقبل بالمُدبر، والصحيح منكم بالسقيم، رُبّ مبنس بقدومنا سيُسر، ومسرور بقدومنا سيبتس) وقول الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما (ألا أن ما تكرهون في الجماعة خير لكم مما تحبون في الفرقة)<sup>(٢)</sup> وقوله عليه السلام (لأن تذلوا وتعانوا أحب إلي من أن تعزوا وتقتلوا).

(١) ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٣، ص ٢٣٠.

(٢) ينظر: ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت ٢٧٦هـ / ٨٧٧م) الإمامة والسياسة علق عليه ووضع حواشيه: خليل المنصور، ط ١، دار الكتب العلمية (بيروت، ١٩٩٧م) ج ١، ص ١٢١.

وقول عبد الله بن الزبير (لم يعز الله مَنْ كان الباطل معه وان كان معه الأنام طراً، ولم يُذل من كان الحق معه، وان كان مفرداً ضعيفاً، فأن تُقبل الدنيا عليّ لم أخذها أخذ الأشر البطر، وان تُدبر عني لم أبك عليها بكاء الخرق المهين)<sup>(١)</sup>.  
(٥) أما التعبير فإنه يتسم بعدة خصائص هي :

( أ ) قوة العبارة وجزالتها، لأنها تعبير عن مشاعر مهتاجة ونفوس ثائرة حانقة كقول زياد (وايم الله أن لي فيكم لصرعى كثيرة، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاي).

وقول الحجاج (أن أمير المؤمنين نثر كنانته بين يديه، فعجم عيدانها، فوجدني أمرها عوداً، وأصلبها مكسراً، فرماكم بي، لأنكم طالما أوضعتم في الفتنة، واضطجعتم في مراقد الضلال) وقول أبي حمزة (شباب والله مكتهلون في شبابهم، غضيضة عن الشر أعينهم، ثقيلة عن الباطل أرجلهم، أنضاء<sup>(٢)</sup> عبادة، وأطلاح سهر، باعوا أنفساً تموت غداً بأنفس لا تموت أبداً).

(ب) قصر الجمل ليشتد وقعها، ويتلاحق تأثيرها من ذلك قول عبد الملك بن مروان (أن الحرب صعبة مرة، وان السلم أمن ومسرة).

(ج) العناية بالوقع والرنين، سواء أجا عن طريق سجع غير مستكره أم عن طريق الازدواج، أم من تقسيم العبارة إلى جمل متوازنة القدر والطول، نجد هذا واضحاً في قول الحجاج بن يوسف الثقفي (إن للشيطان ضيقاً، وإن للسلطان سيفاً، فمن سقمت سريرته، صحت عقوبته، ومن وضعه ذنبه رفعه صلبه، ومن لم تسعه العافية، لم تضق عنه الهلكة)<sup>(٣)</sup> وفي قول الحسين بن علي عليه السلام

(١) ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، جـ٣، ص ١٩٠.

(٢) انضاء واطلاح يعني مهزولون من التعب، ينظر: ابو بكر الرازي، مختار الصحاح:

(٣) ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، جـ١ ص ٢٢٠.

(أن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء)<sup>(١)</sup>.

(١) يغلب على خطب العصر الأموي كلها الإيجاز المعتدل، ويقل فيها التوسط القريب من الطول، وتندر فيها الخطب المسهبة المطولة، وهي في هذه الظاهرة تعتبر امتداد للخطابة في عصر النبوة والخلافة الراشدة.

تقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب خطبة من صلاة العصر إلى أن جنحت الشمس للمغيب، ولكن خطبة القصار كانت أكثر. وكذلك تقل الخطب الطوال في هذا العصر. ولعل أطول الخطب السياسية التي وصلت إلينا خطبة أبي حمزة الخارجي التي خطبها بالمدينة دفاعاً عن الشباب من حزبه، وهي في نحو تسعين سطرًا، وتقل أيضاً الخطب الموجزة المتناهية في الإيجاز، كخطبة الإمام الحسن عليه السلام في رده على معاوية لما نال منه ومن أبيه بالكوفة فهي في أربعة أسطر<sup>(٢)</sup> فقط وخطبة المختار بن أبي عبيد<sup>(٣)</sup> وهو يشيع إبراهيم بن الأشتر<sup>(٤)</sup> لقتال ابن زياد فهي في سطرين<sup>(٥)</sup>، وخطبة عبد الله بن الزبير بعد خطبته الأولى لما قتل

(١) ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٦ ص ٢٢٩.

(٢) ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج ١، ص ١٦.

(٣) المختار بن أبي عبيد الثقفي: هو المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي أبو أسحق ولد سنة ١هـ من الزعماء الثائرين على بني أمية من أهل الطائف ثم انتقل إلى المدينة المنورة وهو من انصار الحسين عليه السلام حيث قتل شمر بن ذي الجوشن وكذلك خولى بن يزيد وعمر بن سعد بن أبي وقاص وقتل عبيد الله بن زياد توفي سنة ٦٧هـ / ٦٨٧م ينظر الطبري، تاريخ لرسول والملوك ج ٧ ص ١٤٦، ابن الأثير، الكامل ج ٤ ص ٨٢ - ١٠٨.

(٤) إبراهيم بن الأشتر: هو إبراهيم بن مالك الأشتر بن الحارث النخعي قائد شجاع من أصحاب مصعب بن الزبير شهد معه الوقائع وقتل في حرب عبد الملك بن مروان ودفن بقرب سامراء سنة ٧١هـ / ٦٩٠م وهو من قبيلة نخع باليمن. ينظر: اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ١٨٠، الزركلي، الاعلام ج ١ ص ٥٣.

(٥) ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٢ ص ٤٧.

أخوه مصعب بن الزبير<sup>(١)</sup> فهي في سطرين، وخطبته وقد بلغه قتل عمرو بن الأشدق<sup>(٢)</sup> فهي في سطر واحد<sup>(٣)</sup>.

أما الكثرة الغالبة فهي من النوع المتوسط بين الإيجاز والطول.

(٦) التأثر بالقرآن الكريم، إذ تأثر كثير من الخطباء في هذا العصر بالقرآن الكريم، إذ عني كثير من المسلمين بحفظه وبتفسيره، واشتهر في كل مدينة كبيرة جماعة من المفسرين والمحدثين والفقهاء وقد ظهر التأثر بالقرآن الكريم في مظهرين هما:

(١) الاقتباس: كثر الاقتباس من القرآن، والمهارة في وضع الآيات بالمواضع الملائمة لها من الخطبة حتى ليحسب الذي لا يحفظ القرآن أن الكلام كله للخطيب، وإنما عمد الخطباء إلى الاقتباس لأنهم يتذوقون بلاغة القرآن، فيجدون في الآيات التي يقتبسونها تعبيراً صادقاً عما يريدون أن يقولوا، ثم لأنهم يعرفون استجابة سامعيهم للبلاغة، فيضيفون إلى بلاغتهم هم والى تأثيرهم الخطابي أعظم

---

(١) مصعب بن الزبير: هو مصعب بن الزبير بن العوام بن خويلد الأسدي القرشي، أبو عبد الله أحد الولاة الأبطال في صدر الإسلام ولاء أخوه عبد الله بن الزبير البصرة سنة ٦٧هـ ثم أصبح والياً على الكوفة ثم قتل على يد زائدة بن قيس السعدي وكان ذلك في سنة ٧١هـ / ٦٩٠م. ينظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، م ٥، ص ١٣٥. (الذهبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد (٧٤٨هـ - ١٣٤٨م) سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم، مؤسسة الرسالة، (بيروت، ١٩٨٢م) ج ٣، ص ١٠٨.

(٢) عمرو بن الأشدق: هو عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس الأموي، القرشي أمير، من الخطباء البلغاء كان والي مكة والمدينة لمعاوية وابنة يزيد قتل من قبل عبد الملك بن مروان سنة ٧٠هـ / ٦٩٠م وسمي بالأشدق لفصاحته ينظر ابن الأثير، الكامل في التاريخ ج ١، ص ١١٦. الكتبي، فوات الوفيات ج ٢، ص ١١٨. ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب ج ٨، ص ٣٧.

(٣) ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٢، ص ٤٧.

ذخيرة من البلاغة، وسلطان الدين، يقول الجاحظ (وكانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل وفي الكلام يوم الجمع أي من القرآن، فان ذلك مما يورث الكلام إليها والوقار والريقة وسلس الموقع). ثم روي عن عمران بن حطان قوله: إن أول خطبة<sup>(١)</sup> خطبها عند زياد أو عند ابن زياد - فأعجب بها الناس، وشهدها أبي وعمي، ثم أتني مررت ببعض المجالس فسمعت رجلاً يقول لبعضهم: هذا الفتى أخطبُ العرب لو كان من خطبته شيء من القرآن).

على أن الاقتباس من القرآن كان الطابع الغلاب في الخطب الدينية والوعظية ولهذا أسموا خطبة الوعظ أو الدين إذا خلت من القرآن شَوْهَاء، أما الخطب السياسية في هذا العصر فقد غلب فيها الاستشهاد بالشعر. والأمثلة على الاقتباس كثيرة للخطباء في هذه الفترة نذكر منها قول أبي حمزة في تزكية القتلى من أصحابه (فطوبى لهم وحسن مآب) من قوله تعالى (الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب)<sup>(٢)</sup> وقول الحسين بن علي عليه السلام (فمن نكث فإنما ينكث على نفسه)<sup>(٣)</sup> فهي كلها من القرآن.

وقول عبد الله بن الزبير (فسوف يلقون غيًّا)<sup>(٤)</sup> فهذه آية قرآنية وقول محمد<sup>(٥)</sup>

(١) ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ج ١ ص ١١٨.

(٢) سورة الرعد آية رقم (٢٩).

(٣) سورة الفتح آية رقم (١٠).

(٤) سور مريم آية رقم (٥٩).

(٥) محمد بن الحنفية: هو محمد بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي أبو القاسم أحد الأبطال الأشداء في صدر الإسلام وامه خولة بنت جعفر الحنفية وفرقة الكيسية تزعم انه لم يميت وتدعو إلى إمامته توفي في المدينة وقيل هرب من ابن الزبير إلى الطائف فمات هناك سنة ٨١هـ / ٧٠٠م. ينظر: ابن سعد الطبقات الكبرى م ٥ ص ٦٦، الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ٩٧. ابن خلكان، وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٤٩.

بن الحنفية (وكان أمر الله مفعولاً وكان أمر الله قدراً مقدوراً)<sup>(١)</sup> فهاتان آيتان قرآنيّتان.

وقول الحجاج بن يوسف الثقفي فإنكم كأهل قرية كانت آمنة مطمئنة، يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، فكفرت بأنعم الله، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون)<sup>(٢)</sup> فهذا قرآن كريم.

وربما جاءت الخطبة كلها من القرآن الكريم كخطبة مصعب بن الزبير حينما بعثه أخوه عبد الله والياً على البصرة فقد حمد الله واثى عليه ثم قال ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ طَسَمَ تِلْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ، نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسْـَـفِدِينَ﴾<sup>(٣)</sup> وأشار بيده إلى الشام)<sup>(٤)</sup>.

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾<sup>(٥)</sup> (وأشار بيده نحو الحجاز).

﴿وَنُمَكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾<sup>(٦)</sup> (وأشار بيده نحو العراق)<sup>(٧)</sup>.

فهو في هذه الخطبة اعتمد على القرآن وحده، ويجيد اختيار الآيات المعبرة عما في نفسه. فهو في هذه الآيات الكريمة شبه بني أمية في الطغيان والعدوان على حق

(١) سورة الأحزاب آية رقم (٣٧).

(٢) سورة النحل آية رقم ١١٢.

(٣) سورة القصص الآيات ١ - ٤.

(٤) ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٧ ص ١٤٦.

(٥) سورة القصص آية رقم (٥).

(٦) سورة القصص آية رقم (٦).

(٧) ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج ٧ ص ١٤٦.

الحياة، وتكهن بأن الزبير بين الذين ينكل بهم بنو أمية وهم الذين سينزعون الملك منهم ويرثونهم، وبأن العراق سيكون مقر ملكهم وبأن بني أمية سيصطلون من نار الزبيريين ما كانوا يخشونه. وأقول إن كثرة الاستشهاد بآيات القرآن الكريم هو كثرة الحفظة للقرآن الكريم في هذا العصر ويزور مفسرين كثيرين أيضا في هذه الفترة، وكان هدف المسلم في هذا العصر هو حفظ القرآن والاستشهاد به في كلامه اليومي وحديثه العام، وانبرى خطباء هذا العصر يستمدون منه المعاني العظيمة التي يستقوها من آياته العظيمة ليؤكدوا انهم أحقّ من بن أمية في الخلافة، ولذلك كان بعض الخطباء يستمدون من القرآن الكريم بعض المعاني يجرونها على أسنتهم عامدين ليفخموا بها أقوالهم ويجتذبوا نفوس سامعيهم أو غير عامدين أن يقتبسوها، وانما جرت على أسنتهم لانهم كما قلت حفاظ للقرآن الكريم قد فهموا ما حفظوا، وتأثروا به، فاستقر في نفوسهم.

من ذلك قول الإمام السيد الحسن عليه السلام في رده على الذين استتقروا صلحه مع معاوية (إن الله لا مُعَقَّبَ لحكمه، لا راداً لقضائه)<sup>(١)</sup>.  
 ففي هذه الجملة يلمح معنى قوله تعالى ﴿والله يحكمُ لا مُعَقَّبَ لحكمه وهو سريع الحساب﴾<sup>(٢)</sup>.

وقوله تعالى ﴿ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾<sup>(٣)</sup>.  
 وهو يقول في الخطبة نفسها (سألنا الله ألا يكلنا إلى أنفسنا) وهذه الجملة تذكرنا بقوله تعالى ﴿ربنا لا تؤاخذنا أن نسينا أو اخطأنا ربنا ولا تحمل علينا أصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾<sup>(٤)</sup>.

(١) ينظر: ابن قتيبة، الإمامة والسياسة، ج ١ ص ١٢١.

(٢) سورة الرعد آية رقم (٢).

(٣) سورة الأنفال آية رقم (٤٢).

(٤) سورة البقرة من الآية رقم (٢٨٦).

ومن قول أبي حمزة الخارجي في وصف أصحابه (باعوا أنفسهم غداً بأنفس لا تموت أبداً) فإن قوله هذا يذكرنا بقوله تعالى ﴿ومن الناس من يَشْرِي نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾<sup>(١)</sup> ويقوله تعالى ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً، بل أحياء عند ربهم يُرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾<sup>(٢)</sup>.

ومنه قول عبد الله بن الزبير في رثاء الحسين عليه السلام (أما والله لقد قتلوه طويلاً بالليل قيامه، كثيراً بالنهار صيامه) فإنه قريب من قوله تعالى ﴿يا أيها المزمّل قم الليل إلا قليلاً﴾<sup>(٣)</sup>.

فالملاحظ في مسألة الاقتباس من القرآن الكريم والتأثر بمعانيه لخطباء هذه الفترة أن هناك ظاهرتين الظاهرة الأولى أن خطباء هذا العصر من الخوارج والشيعة<sup>(٤)</sup> والزيبريين يكثر اقتباسهم من القرآن الكريم ويقبل في خطب الحزب الأموي، ما عدا الحجاج لأنه كان يحفظ القرآن وكان يعلمه فهل كان سبب ذلك أن الحزب الأموي من خلفاء وولاء أقل حفظاً للقرآن كله أو بعضه من الشيعة والخوارج والزيبريين؟ وكان سبب ذلك أن بني أمية لم يقيموا ملكهم على أساس ديني يعتمدون عليه في دعوى استحقاقهم للخلافة، على أن الأحزاب الأخرى أقامت دعواها على أسس دينية؟ وأنا أرجح السبب الثاني في أن بني أمية لم يقيموا ملكهم ابتداءً على

(١) سورة البقرة آية رقم (٢٠٧).

(٢) سورة آل عمران آية رقم (١٦٩)، (١٧٠).

(٣) سورة المزمّل من الآية رقم (١)، (٢).

(٤) الشيعة: الشيعة لغة: شيعة الرجل اتباعه وانصاره قال تعالى "فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه" سورة القصص من آية (١٥) واصطلاحاً هو الاعتقاد بان علياً وذريته رض الله عنهم أجمعين هم أحق بالخلافة. (ينظر: ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن علي الانصاري (ت ٧١١هـ / ١٣١١م). لسان العرب، تحقيق: يوسف خياط وتديم مرعي، طبع دار لسان العرب، (بيروت ١٩٦٨م) ج ٨ ص ٨٨٨ مادة (شيع). ابن حزم، أبو محمد علي بن محمد (ت ٤٥٦هـ / ١٠٦٤م) الفصل والملل والنحل، ج ٢، ص ١١٣.

أساس ديني أو على أساس عقائدي إسلامي بل أخذوا الخلافة عنوة وحيلة وسرقوها من أصحابها الشرعيين وبدون استحقاق لهذه الخلافة، واما الظاهرة الثانية عند دراستنا للخطابة السياسية في هذا العصر فهي أن الاقتباس من القرآن الكريم كان في العصر الأموي أكثر من عصر النبوة والخلافة الراشدة فلماذا؟ لعل من أسباب ذلك أن القرآن العظيم لم يكن في عصر النبوة والخلافة الراشدة يحفظ أو قد تم حفظه إلا من نفر قليل جداً، ولكن نجد أن الفترة الزمنية من عصر النبوة والخلافة الراشدة إلى العصر الأموي جعلت الحفاظ يكثرون وكذلك يكثر المفسرون والمحدثون والفقهاء، وظهرت طبقة المفسرين والقراء والحفظة والفقهاء، ولأن الرجل في عصر النبوة كان يحفظ الآيات من أجل أن يتلوها في الصلاة وقل في هذا العصر من حفظ سورة أو عدة سور طوال يدل على هذا قول أنس بن مالك<sup>(١)</sup>: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جلّ في أعيننا. اما في العصر الأموي فقد انتشر القرآن وكثر حفظه إذ أن عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه كان قد كتب المصاحف ووزعها في الأمصار وجاء بنو أمية فنشروا منها نسخاً كثيرة فسهل على المسلمين أن يقرأوا وان يحفظوا، ثم هناك نقطة أخرى هي أن الجهاد شغل المسلمين في عصر النبوة والخلافة الراشدة والفتوحات في زمن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كانت على أوسعها ولكن في العصر الأموي هدأت الفتوح، وفرغ كثير من المسلمين لتلقي العلم، فكان ابن عباس بمكة وزيد بن ثابت<sup>(٢)</sup> بالمدينة وغيرهما في الأمصار، ما

(١) أنس بن مالك: هو أنس بن النضر بن ضمضم البخاري الخزرجي الانصاري أبو ثمامة أو أبو حمزة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخاتمه روى عنه البخاري ومسلم ٢٢٨٦ حديثاً ولد بالمدينة سنة ١٠ ق هـ توفي في البصرة سنة ٩٣هـ/٧١٢م. (ينظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، م ٧ ص ١١ ابن عساکر، تهذيب ابن عساکر ج ٣ ص ١٣٩.

(٢) زيد بن ثابت: هو زيد بن ثابت بن الضحاک الانصاري الخزرجي أبو خارجه، صحابي ولد في المدينة المنورة سنة ١١ ق هـ/٦١١م وهو من كتاب الوحي وهاجر مع النبي صلى الله عليه وسلم ويأخذ عنه ابن عباس ويقول العلم يؤتى ولا يأتي ومن الذين ساهموا في جمع القرآن وكتبه في يده في عهد عثمان رضي الله عنه له في الصحيحين (٩٢) حديثاً توفي سنة ٤٥هـ/٧٥٣م. ينظر: ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٩٧هـ/١٢١٠م) صفة الصفة، دار الجيل، (بيروت، ١٩٩٢م)، ج ١، ص ٢٩٤. الزركلي، الاعلام ج ٣ ص ٩-٩٦.

يعلمون الناس ويفسرون لهم القرآن الكريم، وشيء آخر هو أن المسلمين في عصر النبوة والخلافة الراشدة لم تكن الفرص متاحة لهم ليتشربوا معاني القرآن، ويمهروا في الاقتباس منه لأن العهد قصر من ناحية ولأن الدفاع عن النفس وعن العقيدة شغلهم من ناحية ثانية ولأن تشرب القرآن يحتاج إلى وقت من ناحية ثالثة.

## (٧) الاستشهاد بالشعر

في كثير من الخطب استشهد بالشعر، أو اقتباس من عباراته ومعانيه. ومردّ هذا إلى أن الشعر كان من أصول الثقافة، وكان تأثره في نفوس الناس بعيد المدى وكانت هنالك عوامل عدة قد اجتمعت فنهضت بالشعر نهضة عظيمة فالحجاج مثلا استشهد في خطبته بالكوفة بشعر رُوِيْشِد العنبري وسُجِّيم الرِّياحي، وعبد الله بن الزبير في خطبته بمكة والحجاج يحاصره بهذين البيتين.

أبي لابن سَلْمِي أَنه غير خالد  
مُلاقِي المنايا أَي صُرْفَ نَيْمَ

فلسْتُ بمبتاع الحياة الحياة بسُوءِ  
ولا مُرتَقٍ من خشية الموت سُلَا

ثم استلم الحجر، فتكاثروا ليه، فحمل عليهم وهو يقول:

قد سنّ أصحابك ضرب الاعناق

وقامت الحرب بنا على ساق

فأصابه حجر، فصكّ جبينه، فأدماه، فقال<sup>(١)</sup>

(١) ينظر الطبري، تاريخ الرسل والملوك جـ ٧ ص ٢٠٤. المسعودي، مروج الذهب جـ ٥

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا

ولكن على أعقابنا تَقَطُر الدِّمَا

وعبد الله بن مروان استشهد في خطبته<sup>(١)</sup> بعد قتل مصعب بشعر لقيس بن رفاعه ختم به خطبته.

## (٨) القياس

نجد في بعض الخطب في العصر الأموي قياساً منطقياً معتمداً على الفطرة لا على الدرس والتعلم، لأن خطباء العصر الأموي لم يكونوا قد اتصلوا بعلوم اليونان وفلسفتهم ومنطقهم حتى تبدو في خطبهم مظاهر المنطق المدروس.

وقد جاء في خطبة الحسين بن علي بن أبي طالب سلام الله عليه في أصحابه وفي جند عبد الله بن زياد الذين ذهبوا إليه ليقبضوا عليه بقيادة ابن يزيد التميمي قوله: (من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً بعهده مخالفاً لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، يعمل في عبادته بالإثم والعدوان، فلم يغير عليه بفعل ولا قول كان حقاً على الله أن يدخله مدخله، ألا وإن هؤلاء - بني أمية - قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود، واستأثروا بالقيء وأحلوا حرام الله وحرّموا حلاله، وأنا أحقّ من غيري).

وهذه العبارة تؤدي إلى هذا القياس: بقوله عليه السلام: كل من رأى سلطاناً جائراً مخالفاً لأحكام الله وسنة رسوله فلم يقاومه بفعل أو قول، فقد استوجب عقاب الله.

وبنو أمية جائرون عصاة مارقون من الدين، فالثورة عليهم واجبة وأنا أول ثائر.

(١) ينظر: أبو علي القالي، الأمالي، ج ١ ص ١٣.

وجاء في خطبة زياد لما شرع يميل إلى معاوية قوله: (نظرت في أمور الناس منذ مقتل عثمان، فوجدتهم كالأضاحي في كل عيد يذبحون، وقد أفنى يوم الجمل وصفين ما ينيف على مائة، كان زياد والياً لعلي بفاس ثم استماله معاوية إليه الف. كلهم يزعم انه طالبُ حق وتابع أمام، وعلى بصيرة من أمره، فان كان الأمر هكذا فالقاتل والمقتول في الجنة. كلا ليس كذلك، ولكن أشكل الأمر، والتبس على القوم، وقد نظرت في أمر الناس فوجدت أحمد العاقبتين العافية وسأعمل في أموركم ما تحمدون عاقبته).

والقياس بيّن في هذا، كأنه قال: المتحاربون يوم الجمل وصفين زعموا انهم على حق، على حين أن الأمر مشكل والذين يواصلون الحرب بعد ذلك يشبهونهم. فالسلامة في الكف عن الحرب والفتن. وجاء في خطبة الحجاج بعد أن قتل عبد الله بن الزبير: ألا أن ابن الزبير كان من أحبار هذه الأمة، حتى رغب في الخلافة، ونازع فيها، وخلع طاعة الله واستكنّ بحرم الله. ولو كان شيء مانعاً للعصاة لمنع آدم حرمة الجنة لان الله تعالى خلقه بيده واسجد له ملائكته وأباحه جنته، فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته.

وآدم أكرم على الله من ابن الزبير، والجنة أعظم حرمة من الكعبة والقياس هنا في قوله إن ابن الزبير ثائر متمرّد احتّمى بالحرم فعاقبناه فقد كان آدم في الجنة، ثم عصى ربه الذي كرّمه، فأخرجه منها، وآدم أكرم على الله من ابن الزبير والجنة أعظم حرمة من الكعبة.

## المبحث الثاني

### نموذج من الخطب السياسية في العصر الأموي

#### معاوية وخطباء عصره

في اول خطبة في العراق: استهل معاوية بن أبي سفيان<sup>(١)</sup> مؤسس هذه الدولة خلافته بخطابة أفصحت عن ذات نفسه وعما يراه في علاقته بالأمة الإسلامية التي ولي أمرها، وعن سياسته ومنهجه في حكم رعيته، خطب في الكوفة عندما تم له الصلح مع الإمام الحسن بن علي رضي الله عنهما وصارت إليه الخلافة فقال (يا أهل الكوفة: أتراني قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج وقد علمت انكم تصلون وتزكون وتحجون، ولكنني قاتلتكم لأتأمر عليكم وعلى رقابكم وقد آتاني الله ذلك وانتم كارهون، إلا أن كل مال أو دم أصيب في هذه الفتنة فمطلول، وكل شرط شرطته فتحت قلمي هاتين، ولا يصلح الناس إلا ثلاث: إخراج العطاء عند محله، وأقفال الجنود لوقتها، وغزو العدو في داره، فإنه أن لم تغزهم غزؤكم)<sup>(٢)</sup>.

#### تحليل الخطبة

فمعاوية في خطبته هذه يصارح أهل الكوفة بأنه لم يقاتلهم على فريضة من الفرائض ولا في أمر من أمور الدين، ولا لشيء في سبيل الله، ولا لشأن فيه صلاح لهم وللناس، وإنما قاتلهم ليتأمر عليهم وعلى رقابهم وقد نال طلبته رغم أنوفهم وهم كارهون وهو بعد هذا يعلن أن كل دم أصيب أو مال في هذه الفتنة مطلول، وأنه قد

---

(١) معاوية بن أبي سفيان: هو معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي مؤسس الدولة الأموية في الشام كان فصيحا ولد بمكة سنة ٢٠ ق هـ / ٦٠٣ م واسلم يوم فتح مكة سنة ٨ هـ جعله عمر بن الخطاب رضي الله عنه والياً على الأردن ثم على دمشق اصبح خليفة سنة ٤١ هـ مات بدمشق سنة ٦٠ هـ، ينظر: اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي ج٢ ص ١٩٢، الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج٦ ص ١٨٠ ابن الاثير، الكامل في التاريخ ج٤ ص ٢.

(٢) ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ج٤، ص ٦.

نقض عهده معهم، ورجع عما شرط لهم، ويؤكد ذلك ويجسده حين قال (وكل شرط شرطته فتحت قديمي هاتين) ثم ينته بعد ذلك إلى ما ذكر ما يصلح الناس والذي لا يريد لهم إصلاحاً في شيء سواه: إخراج العطاء في حينه، وإرجاع الجنود إلى ديارهم عند فراغهم من غزوهم، والخروج إلى حرب العدو في بلاده وكفى بهذا عنده صلاحاً كحال الأمة والنهوض بالدولة.

وننظر فيما عرضه معاوية في هذه الخطبة بشعبها الثلاث، فنراه يقرر انه انما قاتل لمسلمين في سبيل الإمارة والحصول على السلطان الذي يتحكم في رقابهم، ثم يقرر نقضه للعهود والشروط وغدره بزمتمهم بعد أن وصل إلى ما يروم، وينتهي إلى بيان الصلاح العام والإصلاح الشامل، فيذكر أول ما ينكر ما يترضاهم به من تعجيل العطاء وما يستدنيهم عن طريقه من الوعد بأقفال الجنود لوقتها، ويضيف إلى هذين آخر الأمر غزوا العدو. وذلك كله موافق لما عرف من أساليب السياسة الأموية وما أثار عن معاوية خاصة من سعيه إلى السيادة والسلطان وتحويله الخلافة الإسلامية إلى ملك، وبذله في سبيل ذلك الوعود ونقضه للعهود، واستمالة الناس بالعطاء والمال وقضاء المصالح واستحلاله الوسائل في سبيل الغايات.

### نموذج لأولى خطب معاوية بن أبي سفيان بالحجاز تصرح بمنهجه

وانتقل معاوية مطلع هذا العهد إلى المدينة فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال (أما بعد فإنني والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم ولا مسرة بولايتي، ولكني جالدتكم بسيفي هذا مجالدة، ولقد رضت لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة وأردتها على عمل عمر، فنفرت من ذلك تفاراً شديداً، وأردتها على سننات<sup>(1)</sup> عثمان فأبنت علي، فسلكت بها طريقاً لي ولكم فيه منفعة، مؤكلة حسنة، ومشاربة جميلة، فان لم تجدون خيركم فأنى خير لكم ولاية. والله لا أحمل السيف على من لا سيف له، وان

(1) ينظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٢ ص ١٣٩.

لم يكن منكم إلا ما يستسفي به القائل بلسانه، فقد جعلت ذلك له ذبّراً أذني، وتحت قدمي، وان لم تجدون أقوم بحقكم كله فاقبلوا مني بعضه، فان أتاكم مني خير فاقبلوه، فان السيل إذا جاء أثرى وإذا قل أغنى، وإياكم والفتنة، فانها تفسد المعيشة، وتكدر النعمة<sup>(١)</sup>.

### دراسة ونقد وموازنات

فمعاوية ابن أبي سفيان ينتقل من العراق إلى الحجاز، ومن الكوفة إلى المدينة المنورة، فيجد من نفسه هنا ما وجده هناك، ويرى في أولئك ما يرى هؤلاء، فقد تولى الخلافة وهم جميعاً لها كارهون، وما نالها إلا بالقتال والصيال والمجادلة بسيفه والأجلاب بخيله ورحله، ثم يصارح الناس بانحرافه عن سنن الخلفاء الراشدين في ولايته وفي سياسته فقد نفرت نفسه نفاراً شديداً حين حاول رياضتها على ما كان من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وكما نفرت من شيء تعافه وتكرهه أو من شيء سودها ويؤذيها، أو من شيء لم تعرفه ولم تألفه فلا طاقة لها به، ولا قدرة لها عليه، فما هذه الأعمال المكروهة أو السيئة الوبيلة، أو الغريبة البعيدة التي كان يأتيها أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فتتفر منها نفس معاوية ذلك النفار الشديد؟ وحتى سُنَيَات عثمان رضي الله عنه في تساهله ويسره تأباها طبيعة معاوية، وتحيد عنها، ذلك أن طبيعته كانت مهياة لأمر آخر، وكان هناك سبيل تسلكه غير هذا السبيل جميعاً، هو سبيل المنفعة المتبادلة والمصلحة المتقارضة والإغراء بالمال، واستعمال الحلم والدهاء، وبذر بذور الآمال عند من يتطلعون لمكاسب اليوم وأمانى الغد وقد كشف معاوية للناس، ما عنده من ذلك حين قال (فسلكت بها طريقاً لي ولكم فيه منفعة: مؤاكلة ومشاركة جميلة. فان لم تجدوني خيركم فإنني خير لكم ولاية). وبقوله

(١) سُنَيَات تعني جمع سُنَيَة تصغير سنة بمعنى الطريقة. ينظر: ابو بكر الرازي، مختار الصحاح

(والله لا احمل السيف على من لا سيف له، وان لم يكن منكم إلا ما يستشفى به القائل بلسانه، فقد جعلت ذلك له دبر أذني وتحت قدمي) وقوله (فإن أتاكم مني خير فاقبلوه، فان السيل إذا جاء أثرى، وإذا قل أغنى) وهذه العبارة ذات دلالة خاصة على ما كان لمعاوية من نظر ورأي فيما يقدم للمسلمين من عطاء، فكأنه يراه فضلاً ولا يراه فرضاً ويعتقده غنماً لهم وإحساناً اليهم، يجب أن يقتعوا به ويشكروا عليه، لاحقاً واجباً، يطلبونه طلباً، ويحاسبون عليه حساباً. وقد اكتفى في هذا الموقف بما تقدم فلم يبين له سياسة في الرعية ولا غاية من الحكم غير السلطة والتحكم، وتقديم الوعود، ونقض العهود، ولم يتعرض لأمر الدين في قليل أو كثير، وهذا تطور في سبيل الحكم وفي مناهج الخلفاء، ولجلاء ذلك ينبغي أن نرجع البصر كرتين لنرى خطب أبي بكر الصديق رضي الله عنه وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهما ومنهجهم في مثل هذا الموقف حين ولي كل منهم خلافة الرسول على المسلمين ونقرن إلى ذلك ما أسلفنا من خطبتي معاوية والمنهج الذي سار عليه في حكمه والمخالف لمنهج خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم.

### معاوية وعقيل بن أبي طالب<sup>(١)</sup>

لقد طلب معاوية من عقيل بن أبي طالب أن يلعن أخاه، وكان بينه وبين أخيه جفوة فأقام بالشام، فقال له معاوية: إن علياً قد قصعك ووصلتك، ولا يرضيني منك إلا أن تلعنه على المنبر، قال أفل: وصعد المنبر، فحمد الله واثى عليه ثم قال (أيها الناس: إن أمير المؤمنين معاوية أمرني أن ألعن علياً بن أبي طالب فالعنوه، فعليه

(١) عقيل بن أبي طالب: هو عقيل بن أبي طالب ابا زيد وامه فاطمة بنت أسد وكان عالماً بانساب العرب وقد ذهب بعده توفي في أول خلافة يزيد. ينظر ياقوت الحموي، جمهرة النسب، تحقيق: د. ناجي حسن، ط١، سنة ١٩٨١، ج١ ص ٢٧. ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة ج٨ ص ٣١.

لعنة الله والملائكة والناس أجمعين<sup>(١)</sup> ثم نزل فقال معاوية انك لم تبين - أبا يزيد - من لعنت بيني وبينه! قال عقيل والله لا زدت حرفاً ولا نقصت آخر، والكلام إلى نية المتكلم<sup>(٢)</sup>.

معاوية وعبد الله بن عباس: وقال معاوية مخاطباً عبد الله بن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن (إن في نفسي منكم لحزازات يا بني هاشم، واني لخليق أن أدرك فيكم الثار، وأنفي العار فان دماءنا قبلكم وظلامتنا فيكم)<sup>(٣)</sup> ثم يخاطبه ويقول "لا يزال يبلغني عنكم ما تبرك له الأبل، وذنوبكم ليينا أكثر من ذنوبنا اليكم، خذتم عثمان بالمدينة، وقتلتم أنصاره يوم الجمل<sup>(٤)</sup> وحاربتوني بصفين، ولعمري ولعمري لبنو تيم<sup>(٥)</sup> وعدي أعظم ذنباً منا إليكم إذ صرفوا عنكم هذا الأمر، وسنوا فيكم هذه السنة، فحتي من اغضى الجفون على القذى، واسحب الذبول على الأذى، وأقول لعل الله وعسى"<sup>(٦)</sup>.

### معاوية وعبد الله بن الزبير

ويتجاوز معاوية بن أبي سفيان نطاق السياسة والحزبية وتهيج الفتن، والتحرر من روح الدين في سبيل السلطان والملك إلى النعرة الجاهلية، فيشعل نار المفاخرة

(١) ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين جـ ٣ ص ٢٦٣.

(٢) ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين جـ ٢ ص ٢٦٠. ابن عبد ربه، العقد الفريد، جـ ٢ ص ١١٣.

(٣) ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة جـ ٢ ص ١٠٥.

(٤) معركة الجمل: حدثت بين علي بن أبي طالب رضي الله عنه حيث انه خرج من المدينة المنورة إلى العراق وكان معه عمار بن ياسر والحسن السبط والتقى مع جيش عائشة أم المؤمنين وطلحة والزبير وكان ذلك في جماد الآخرة سنة ٣٦ هـ ٦٥٨ م وقتل فيها طلحة والزبير ثم عاد الإمام علي عليه السلام إلى الكوفة. ينظر ابن سعد، الطبقات الكبرى، م ٣ ص ٣١ الطبري، تاريخ الرسل والملوك جـ ٤ ص ص ٥٠٨-٣٤.

(٥) يريد بني تيم أبا بكر الصديق رضي الله عنه، وبني عدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٦) ينظر: ابن عبد ربه العقد الفريد، جـ ٢ ص ١١٠. د. محمد طاهر دروش الخطابة في صدر

الإسلام جـ ٢ ص ص ١٥٠-١٦٢.

والتعظيم بالآباء والتكاثر بالعدد والأموال وذكر الاحساب والأيام، وإحياء العصبية وإثارة حمية الجاهلية التي قال عنها نبينا الكريم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ودعوها فانها نتنة" وإيقاظ ما عفى عليه وستره الإسلام، فيقول عبد الله بن الزبير ويطاوله على مشهد من جمع قريش مخاطباً له فيقول (قاتلك<sup>(١)</sup>) الله يا ابن الزبير ما أعياك وأبغاك! أتفخر بين يدي أمير المؤمنين وأبي عبد الله<sup>(٢)</sup> أنت المتعدّي لطورك، الذي لا تعرف قدرك، فقس شبرك بفترك، ثم تعرّف كيف تقع بين عرائن<sup>(٣)</sup> عبد مناف، اما والله لئن دفعت في بحور بني هاشم وبني عبد شمس لتقطعنك بأواجها ثم لتوهين بك في أجاجها<sup>(٤)</sup> فأخذ عبد الله بن الزبير بفخر عليه بأبيه وأمه وجده الصديق رضي الله عنك أيها الصديق، وعمته خديجة الكبرى وزوجها رسول الله وجدته صفية<sup>(٥)</sup> مخاطباً له (أسألكم بالله، أتعلمون أن أبي حوراي رسول الله، وان اباه ابو سفيان حارب رسول الله؟ وان أمي أسماء بنت أبي بكر الصديق<sup>(٦)</sup> وأمه هند آكلة الأكباد؟ وجدي الصديق

(١) ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ج ١ ص ١٥٧.

(٢) أبو عبد الله يريد به الحسين بن علي رضي الله عنهما.

(٣) عرائن، جمع عرنين وهو السيد الشريف وفي الأصل اسم للأنف أو صلب من عظمة. ينظر: ابو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص ٤٢٨.

(٤) توهين بك أي بمعنى تسقطك والاجاج بمعنى الملح المر. ينظر: م. ن، ص ٧٣٨ و ٦.

(٥) صفية بنت عبد المطلب: هي صفية بنت عبد المطلب بن هاشم سيدة قريشية، شاعرة باملة وهي عمّة النبي صلى الله عليه وسلم اسلمت قبل الهجرة توفيت في المدينة سنة ٢٠هـ / ٦٤١م. (ينظر: ابن الكلبي، أبو المنذر هام بن محمد بن السائب (ت ١٤٦هـ / ٧٦٤م) جمهرة النسب، تحقيق: أحمد عبد الستار فراج، طبعة محمد خليفة التونسي، (الكويت، ١٩٨٣م) ص ٤٩٠. ابن سعد، الطبقات الكبرى، م ٨، ص ٢٧).

(٦) أسماء بنت أبي بكر الصديق: هي أسماء بنت أبي بكر الصديق عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر من قريش صحابية لقبت بذات النطاقين تزوجها الزبير بن العوام توفيت بمكة سنة ٧٣هـ / ٦٩٢م وروى لها البخاري ومسلم (٥٦) حديثاً. ينظر ابن سعد الطبقات الكبرى م ٨ ص ١٨٢، أبو نعيم الاصبهاني حلية الاولياء ج ٢ ص ٥٥.

وجده المشدوخ<sup>(١)</sup> ببدر ورأس الكفر؟ وعمتي خديجة ذات الخطر<sup>(٢)</sup> والحسب وعمته أم جميل حمالة الحطب؟ وجدتي صفية وجدته حمامة<sup>(٣)</sup> وزوج عمتي خير ولد آدم محمد صلى الله عليه وسلم وزوج عمته شر ولد آدم أبو لهب، (سيصلى ناراً ذات لهب؟)<sup>(٤)</sup> وخالتي عائشة<sup>(٥)</sup> أم المؤمنين وخالته أشقى الأشقيين، وأنا عبد الله وهو معاوية<sup>(٦)</sup>

وهذا نموذج من خطب عبد الله بن الزبير وذلك انه لما بلغه مقتل أخيه مصعب بن الزبير: خطب الناس فقال

(الحمد لله: له الخلق والأمر، والدنيا والآخرة يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، اما<sup>(٧)</sup> بعد، فانه لم يعز الله من كان الباطل معه وان كان معه الأنام طراً<sup>(٨)</sup>، ولم يذل من كان الحق معه وان كان فرداً. ألا وان خيراً من العراقي أتنا فأحزنتنا وأفرحنا، أتنا ان مصعباً قُتل، رحمة الله عليه

(١) المشدوخ بمعنى المكسور والمراد المقتول ويريد به عتبة بن ربيعة.

(٢) ذات الخطر بمعنى القدر والمنزلة.

(٣) حمامة هي أم أبي سفيان (ينظر ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة جـ ١، ص ١٥٧).

(٤) سورة الלהب: آية رقم (٣).

(٥) عائشة بنت أبي بكر الصديق: هي عائشة (أم المؤمنين) بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه القرشية التيمية زوج النبي صلى الله عليه وسلم تزوجها قبل الهجرة بثلاث سنين توفيت سنة ثمان وخمسون للهجرة ودفنت بالبقيع ليلاً ينظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، جـ ٢ ص ٣٧٤-٣٧٨. ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الاصحاب جـ ٣ ص ٣٨-٣٩.

(٦) ينظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة جـ ١ ص ١٥٧.

(٧) أما: شرطية تفصيلية: وبعد ظرف مبن على الضم لانقطاعه عن الإضافة والفاء واقعة في جواب الشرط.

(٨) الأنام: هو كل ما على وجه الأرض من الخلق وطراً بمعنى جميعاً، ينظر، ابو بكر الرازي

، مختار الصحاح: ص ٣٨٩

ومغفرة. فأما الذي أحزننا من ذلك، فإن لفراق الحميم لذعةً ولوعةً<sup>(١)</sup> يجدها حميمة، ثم يرعوي ذوو الألباب إلى جميل الصبر وكريم الغراء<sup>(٢)</sup>، وأما الذي أفرحنا فإن قتل المصعب له شهادة ولنا ذخيرة، أسلمه الطغام<sup>(٣)</sup> الصم الآذان، إسلام النعم المخطمة<sup>(٤)</sup>، وباعوه بأقل من الثمن الذي كانوا يأخذون منه، فأن قتل، فقد قتل أبوه وعمه وأخوه وكانوا الخيار الصالحين، إنا والله لا نموت حتف أنوفنا<sup>(٥)</sup> ولكن قعصا بالرماح<sup>(٦)</sup>، وموتاً تحت ظلال السيوف، إلا إنما الدنيا عارية من الملك إلا على الذي لا يبید ذكره ولا زول سلطانه، فأن تقبل الدنيا علي، لم آخذها أخذ الأثر البطر<sup>(٧)</sup> وأن تدبر عني لم أبك عليها بكاء الخرق المهين<sup>(٨)</sup> أقول قولي هذا واستغفر الله لي

(١) اللوعة بمعنى الحرقعة في القلب وهي مشتقة من الفعل لاع: لوع. ينظر: أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص ٦٠٨.

(٢) الغراء بمعنى الصبر أو حسن الصبر. م. ن، ص ٤٧٠.

(٣) الطغام بمعنى أوغاد الناس. ينظر: م. ن، ص ٣٩٣.

(٤) المخطمة: اسم مفعول من التخطيم وخطمه بالخطام أي جعله على أنفه أو جر أنف ليضع عليه الخطام والخطام بوزن كتاب كل ما وضع على أنف البعير ليقفاد به: وجمعه خطم ككتب يريد أنهم دفعوا به إلى الموت وقادوه إليه كما تقاد النعم إلى الجزر. ينظر: أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص ١٨١.

(٥) حتف أنوفنا: الحتف بمعنى الموت أي نموت على الفراش من غير قتل ولا ضرب ولا غرق ولا حرق وخص الأنف لأن الروح تخرج نه بتتابع نفسه. ينظر: م. ن، ص ١٣٢.

(٦) قعصا بالرماح يقال مات قعصاً أي إصابته ضربة أو ربيبة فمات مكانه. ينظر: م. ن، ص ٥٤٥.

(٧) الأثر: أي من يكفر بالنعمة ولا شكرها والبطر من يطغى بالنعمة أو يكره الشيء من غير أن يستحق الكراهة والفعل منهما بكسر العين في الماضي وفتحها في المضارع. ينظر: م. ن، ص ١٧.

(٨) الخرق بكسر الراء صفة مشبهة من الخرق بفتحيتين وهو الدهش من الخوف أو حياء أو أن بهت فاتحاً عينيه ينظر والمهين بمعنى الذليل. ينظر: م. ن، ص ١٧٣.

ولكم) وعبد الله بن الزبير بن العوام وأمه أسماء ذات النطاقين بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه كان أول مولود للمسلمين المهاجرين من سكنة المدينة شبَّ فارساً شجاعاً، فصيح اللسان بليغاً، شهد رسول الله وروى عنه وحفظ القرآن واشترك في كثير من المعارك وأبلى في جميعها أحسن البلاء، وقد سبق ترجمته وقد خطب خطبته هذه في مكة المكرمة حين بلغه قتل أخيه مصعب وكان عامه على العراق في معركة قاتل فيها جيش الأمويين حتى قتل، وكان ابن الزبير قد بسط سلطانه على الحجاز واليمن ومصر والعراق وعمان، بدأ يدعو لنفسه بالخلافة بعد وفاة معاوية بن أبي سفيان، وولاية يزيد ابنه وكانت دعوة الحزب الزبيرى تقوم على رد أمر المسلمين إلى قريش لتختار هي من يصلح لهم من كبار الصحابة أهل السابقة في الإسلام، فبويع له بالخلافة في الحجاز سنة ٦٤هـ، وأخذ أمره يقوى وشأنه يعظم وانضم إليه من الأقطار حتى بلغ أوج سلطانه في أول عهد عبد الملك بن مروان، إذ كان قد خلا له الجو، واستطاع نشر دعوته بسبب ما انشغل به الأمويون من خلاف بينهم وتنافس على الإمارة فلما تولى عبد الملك بن مروان<sup>(١)</sup> تبدلت الحال ونهض يسوس الدولة ويقر الأمور بعزم وحزم.

ورأى أن العراق هو أول ما ينبغي استخلاصه من الأقطار إذ فيه الخطر القريب لقربه من الشام ولتغلغل العداء فيه للأمويين، فجهز جيشاً كبيراً قاده بنفسه والتحم بمصعب في معركة شديدة تفرق فيها عنه أكثر أصحابه فقاتل حتى قتل، وبذلك انتهى حكم الزبيريين في العراق ووجه من الكوفة إلى مكة بقيادة الحجاج ابن يوسف الثقفي لقتل عبد الله بن الزبير، فحاصر مكة ورماها بالمجانيق وانفض عن

(١) عبد الملك بن مروان: هو عبد الملك بن مروان بن الحكم من أشهر خلفاء بني أمية ولد بمكة سنة ٢٦هـ واه عاتشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية توفي سنة ٨٦هـ بدمشق ومدة ولايته ثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر ينظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، جـ ٥ ص ٢٣. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد جـ ١٠ ص ٩. الذهبي، سير أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٢٥٠-٣٤٩.

ابن الزبير أصحابه حتى ابناه حمزة وخبيب، فقاتل حتى قتل سنة ٧٤هـ. وكانت خلافته في الحجاز تسع سنين، وبذلك فإن خطب ابن الزبير تغلب عليها الحماسة في الدين، وقوة الإيمان، وتتم على الصلابة في الكفاح وشجاعة القلب، في أسلوب بليغ مؤثر وتلك الشجاعة هي صفة آل الزبير عامة وقد أورد الأمثلة في ذلك بمن قتل منهم، فذكر أباه الزبير بن العوام وكان قد قتل بعد اعتزاله وقعة الجمل، إذ انصرف إلى وادي السباع فقتل وهو في الصلاة، وذكر كذلك عمه عبد الرحمن بن العوام وكان قد استشهد في وقعة اليرموك، وذكر أخاه وهو المنذر بن الزبير وكان قد اشترك في وقعة الحرة<sup>(١)</sup>، ثم التحم بعدها في معركة أخرى بجيش يزيد فقتل، وأشار إلى شجاعة آله وانهم لا يموتون حتف أنوفهم ولكن قتلاً بالرماح، وموتاً تحت ظلال السيوف، ثم وصف الدنيا بانها عارية فهو لا يطمح في ملكها، فان تقبل عليه لم يأخذها اخذ من يكفر النعمة ويطغى، وان تدبر عنه لم يبك عليها بكاء الدَّهش الذليل.

### معاوية والأحنف بن قيس

اذ دخل رجل من أهل الشام على معاوية وعنده وجوه القوم من اشهر خطباء رؤساء القبائل في هذا العصر كصعصة بن صوحان<sup>(٢)</sup> وسحبان بن وائل<sup>(٣)</sup> وفيهم

(١) وقعة الحرة: الحرة: هي مكان قريب من المدينة المنورة دار فيه قتال شديد بين الموالين لبني أمية ويزيد ابن معاوية الذي ارسل جيشاً بقيادة مسلم بن عقبة المري وبين عبد الله بن الزبير رضي الله عنه بعد مقتل الحسين عليه السلام اذ حيث أسرف مسلم بن عقبة في سفك الدماء في اهل المدينة. (ينظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، م ٥، ص ٣٢٧-٣٢٨ البلاذري، أحمد بن يحيى (ت ٢٩٧هـ - ١٩٣م) أنساب الأشراف، تحقيق: محمد حميد الله، مطابع دار المعارف (مصر، دت)، ج٤، ص ١٥).

(٢) صعصة بن صوحان: هو صعصة بن صوحان بن حجر بن الحارث العبدي، من سادات عبد القيس من اهل الكوفة، كان بليغاً عاقلاً، له شعر، شهد صفين مع علي عليه السلام، قال الشعبي: كنت اتعلم منه الخطب، ونفاه المغيرة من الكوفة إلى جزيرة "أوال" في البحرين بأمر من معاوية فمات فيها، وقيل مات بالكوفة سنة ٦٠هـ. ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص ٢٤٨. ابن عساکر، تهذيب ابن عساکر، ج٦، ص ٤٢٣.

(٣) سحبان بن وائل: هو سحبان بن زفر بن اياس الوائلي من باهلة، خطيب يضرب به المثل في البيان يقال "أخطب من سحبان، وافصح من سحبان" اشتهر في الجاهلية وعاش زمناً في الإسلام، وكان إذا خطب يسيل عرقاً ولا يعيد كلمة ولا يتوقف ولا يقعد حتى يفرغ، أسلم في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يجتمع به وأقام في دمشق أيام معاوية وله شعر وأخبار، (ينظر: ابن عساکر تهذيب ابن عساکر، ج٦ ص ٦٥. البغدادي، خزائن الأئمة، ج٤ ص ٣٤٧، ونقل عن طبقات الخطباء لأبي نعيم، (سحبان: خطيب = العرب غير مدافع، وكان إذا خطب لم يعد حرفاً ولم يتلثم ولم يتوقف ولم يفكر بل كان... (سيلاً).

الأحنف بن قيس، فقام خطيباً وكان آخر كلامه في خطبته أن لعن علياً عليه السلام فاطرق الناس ثم قام الأحنف فقال "يا أمير المؤمنين: إن هذا القائل ما قال آنفاً، لو علم أن رضاك في لعن المرسلين للعنهم، فاتق الله ودع علياً فقد لقي الله وافرد في حفرته وخلا بعمله وكان والله، علمنا المبرز بشقّه<sup>(١)</sup>، الطاهر في خلقه، الميمون النقية، العظيم المصيبة" ثم طلب معاوية من الأحنف أن يلعن علياً عليه السلام فقام الأحنف وخطب ثم قال (أيها الناس: إن معاوية أمرني أن ألعن علياً، ألا وإن علياً ومعاوية اختلفا واقتتلا وادعى كل واحد انه مبغي عليه وعلى فنته، فإذا دعوت فأمنوا رحمكم الله، ثم أقول: اللهم ألعن أنت وملائكتك وانبيائك وجميع خلقك الباغي منهما على صاحبه، والفئة الباغية على المبغي عليها، اللهم العنهم لعناً كبيراً، آمنوا رحمكم الله، يا معاوية لا أريد على هذا ولا انقص منه حرفاً، ولو كان فيه ذهب نفسي)<sup>(٢)</sup>

### وهذا نموذج آخر لإحدى خطب الأحنف بن قيس

قال: "... واجعل بينك وبين رعيتك من العدل والانصاف شيئاً يكفيك وفادة الوفود، واستماحة المحتاج ثم قال الأحنف في قيس من خطبة له في قوم كانوا عنده أنصف من نفسك قبل أن ينتصف منك، وإياكم من مشاورة النساء، واعلم أن كفر النعمة لوم وصحبة الجاهل شؤم، ومن الكرم الوفاء بالذمم.. اعرف الحق لم عرفه لك، واعلم أن قطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل)<sup>(٣)</sup>.

وقال عبد الله بن الزبير رضي الله عنه (... اما بعد فان هذه الخلافة لقريش

(١) المبرز بمعنى الفائق غيره، الشق الجانب والمراد المتقدم السابق. ينظر: ابو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص ٤٨.

(٢) ينظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد ج ٢ ص ١١٨. النويري، أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م) نهاية الأرب في فنون الأدب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة (مصر، ١٩٢٢م ج ٧، ص ٢٣٧)

(٣) ينظر: أبو علي القالي، الامالي، ج ٢ ص ٢. أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب، ج ٢ ص ٣٥٩.

خاصة، تتناولها بمآثرها، وأفعالها المرضية، مع شرف الآباء، وكرم الأبناء فأتق الله يا معاوية، وانصف من نفسك فان هذا عبد الله ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وانا عبد الله بن الزبير ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلي خلفاً حسناً وحسيناً، وأنت تعلم من هما، وما هما، فاتق الله يا معاوية، وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك<sup>(١)</sup>.

---

(١) ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٨ ص ١٣١، ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ١ ص ٢١٦. المسعودي، مروج الذهب، ج ٢ ص ٦٧١. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٥ ص ١٧. أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب، ج ٢ ص ٣٥٩، رقم ٢٠٠.

## المبحث الثالث

### موضوعات الخطابة واتجاهاتها الرئيسية مع نموذج لخطب

### بعض الخطباء، توضح اتجاهات الخطابة في الحياة السياسية والاجتماعية والدينية

تبين مما تقدم أن تحولاً كبيراً قد أصاب الحياة في العصر الأموي واصبحت الخلافة الدينية النبوية، دولة سياسية أموية وكثرت الطوائف المختلفة وسادت الحزبية وأخذت الحياة ذلك الطابع السياسي الحزبي فغلبت على الخطابة هذه الصبغة وكان طبيعياً أن تختلف موضوعاتها عندئذ عما كانت عليه في عصر النبوة والخلافة الراشدة، وان تأخذ اتجاهات جديدة إذ أصبحت موضوعاتها تمثل أحوال العصر واتجاهاته، وقد كان ابرز ألوان الحياة العامة والحياة الأدبية الخاصة ذلك اللون السياسي الحزبي الصارخ، ودخلت معارك الرأي والعقيدة والطائفية بحوارها وجدلها وفخرها ومخاضاتها، واقتحمت ميادين الحروب فيما بينها ولم يكن لها غنى عن الاجتماع بالدين، فلجأت إليه تعتمد عليه وتستظل بظله، ولم تتطمس معالم الحياة التي كانت مألوفة سائدة، فبقى للدين أقوام ينافحون عنه ويعتصمون بحبله ويتكلمون فيه ويعظون به ويقصون قصصه، ونشطت الحياة الاجتماعية ودبت روح الحضارة في الأمة وقامت فيها مظاهر الملك وتمثلت آياته، فكان من آثار ذلك الكلام في الشؤون العامة ورعاية لأحوال المجتمع ودعوات تترجم عن حاجاته وعناية بتتظيم سبله وتهذيب جوانبه وسن آدابه، وعليه فكانت الخطابة في هذا العصر تسير باتجاهات ثلاثة، يتخللها الجانب الديني والاجتماعي والسياسي وهو الغالب وفي كل اتجاه من هذه الاتجاهات الرئيسية، كان صوت الخطابة عالياً قاهراً وضوؤها منتشراً باهراً، وأثرها واضحاً ظاهراً، فقد كانت الخطابة كما ذكرنا تعبيراً عن الحياة وتتجاوز معها وتواجه مشكلاتها، وتفسر ظواهرها، وكانت عماد السياسة والأحزاب والنهضات والدعوات والثورات في نزاعها وصراعها، ولسانها في جدلها وخصوماتها، ودليل

وجودها وقوتها وحياتها فخاضت معها تلك الميادين جميعها، سلاحاً من أسلحتها الفعالة العتيقة، ومنها استنقت موضوعات الخطابة في هذا العصر وعنها أخذت طابعها ولونها.

والناظر في موضوعات الخطابة في هذا العصر يجدها ممثلة كل التمثيل لأحواله واتجاهاته، تسايرها في خطواتها وتقف معها مواقفها، وتوغل ايغالها وتقوى كقوتها فأوفر الموضوعات خطباً وأغناها السياسة والحكم وما يتصل بها ويأتي بعدها الدين والوعظ ثم الاجتماع والشؤون العامة.

### **نموذج لخطب بعض الخطباء المشهورين في هذا العصر توضح اتجاهات**

#### **الخطابة في الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية.**

#### **نموذج من خطبة معاوية في طلب البيعة ليزيد**

(أيها الناس: قد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض ولم يستخلف أحداً، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر، وكانت بيعته بيعة هدى، فعمل بكتاب الله وسنة نبيه، فلما حضرته الوفاة رأى أن يستخلف عمر، فعمل عمر بكتاب الله وسنة نبيه، فلما حضرته الوفاة رأى أن يجعلها شورى بين ستة نفر اختارهم من المسلمين فصنع أبو بكر ما لم يصنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصنع عمر ما لم يصنعه أبو بكر، كل ذلك يصنعونه نظراً للمسلمين، فلذلك رأيت أن اباع ليزيد لما وقع الناس فيه من الاختلاف، ونظراً لهم بعين الانصاف)<sup>(١)</sup> ولكن نجد بشكل واضح من قام يعارض معاوية بن أبي سفيان في أخذ لبيعة لابنه يزيد واشتد في معارضته منهم عبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر<sup>(٢)</sup> وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير

(١) ينظر: أحمد زكي صفوت، جمهرة خطب العرب جـ ٢ ص ٢٥٩ رقم ٢٤٩.

(٢) عبد الله بن جعفر: هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهما ولد بالحبشة حين هاجر أبوه وامه مع من هاجر إلى الحبشة وباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أجود العرب ولم يبايع طفلاً غيره فهي من خصائصه، ينظر: المصعب الزبيري، نسب قریش ص ٨٠. توفي بالمدينة سنة ٨٠هـ، ابن سعد، الطبقات الكبرى، م ٤ ص ٤٢.

والحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام<sup>(١)</sup> وعبد الرحمن بن أبي بكر<sup>(٢)</sup> والأحنف بن قيس ومروان بن الحكم<sup>(٣)</sup>.

وهذه المعارضة تحولت إلى معركة شديدة انتهت بمذبحة استشهد فيها حفيد الرسول وكثير من آل بيته، تلك المعركة التي روت لنا الخطابة قصصها وفصلاته تفصيلاً، وهذا موطن يحسن أن نقف به وقفة، نتبين منها مدى ما بلغته السياسة والحزبية بهذه الأمة الإسلامية، حتى أخرجتها عن سنن دينها القويم وسبيله السوي المستقيم، وسيكون دليلنا على هذه القضية خطابة الخطباء، وشاهدنا فيها أقوال القالة الذين خاضوا غمارها وشاركوا فيها ونجد نصوص الخطابة توضح اتجاهات الخطابة في هذا العصر ونبدأ بسيد الشهداء الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام الذي امتنع عن بيعته يزيد حينما طلبها معاوية لإبنه وأصر على هذا الموقف بعد وفاة

---

(١) الحسين بن علي بن أبي طالب: هو الحسين بن علي رضي الله عنه سبط الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ولد في المدينة يوم الخميس لثلاث خلون من شعبان سنة أربع للهجرة واستشهد ثائراً على الظلم والطغيان في واقعة الطف بكرلاء المقدسة يوم الاثنين العاشر من المحرم سنة إحدى وستين للهجرة (٦١هـ) ودفن في كربلاء، ينظر: المصعب الزبيري، نسب قريش ص ٤٠، الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج ٢ ص ٢١٥، الذهبي، سير أعلام النبلاء ج ٣ ص ٢٨٠.

(٢) عبد الرحمن بن أبي بكر: هو عبد الرحمن ابن عبد الله أبي بكر الصديق بن أبي قحافة القرشي التيمي، صحابي كان من الزهاد الشجعان، أسلم في هدنة الحديبية امتنع عن بيعته يزيد وقال أهرقليه كلما مات قيصر كان قيصر مكانه؟ لا نفعل والله أبداً مات بمكة سنة ٦٠هـ (نظر ابن قنفذ القسنطيني، كتاب الوفيات ص ص ٧٢-٧٣ ابن العماد الحنبلي شذرات الذهبى ج ١ ص ٥٩).

(٣) مروان بن الحكم: هو مروان بن الحكم بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ولد بمكة ومات بالشام سنة ٦٥هـ / ٦٨٤م أصبح خليفة بعد مؤتمر الجابية سنة ٦٤هـ / ٦٨٣م وهو أول من ضرب الدنانير الشامية (ينظر: ابن سعد الطبقات الكبرى، ج ٥ ص ٣٥. الطبري، تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٥٢٤. ابن عبد ربه، العقد الفريد ج ٤ ص ١٨٠).

معاوية، لان الحسن عليه السلام إنما تنازل لمعاوية عن الخلافة على أن تكون له من بعده، أو يكون الأمر شورى بين المسلمين، ولان يزيد لم يكن اصلح الناس لخلافة المسلمين ولا من أصلحهم لذلك، ولان الأسلوب الذي لجأ إليه معاوية كان قضاء على مبدأ الشورى وعلى حق المسلمين في اختيار خليفتهم؛ فقد جعلها بذلك ملكية وراثية، وإمبراطورية هرقلية، كلما مات هرقل، قام هرقل كما قال لهم<sup>(١)</sup> عبد الرحمن بن أبي بكر، وندع القول للخطابة تفصح عن جانب مما كان بين معاوية والمعارضين له في البيعة ليزيد، وبين نقضه للعهد وانحرافه في حكمه عن منهج الصحابة، ثم نمضي لنسمع صوتها فيما كان بين الحسين بن علي رضي الله عنه وأرضاه ويزيد ورجاله حتى انتهوا إلى تلك الجريمة الإنسانية والمأساة الأخلاقية وقد قدم معاوية إلى المدينة وحاول ان يقنع الحسين وكبار المعارضين ببيعة يزيد.

### نموذج من خطبة الحسين عليه السلام

#### والرد على معاوية لأخذ البيعة

قال الحسين عليه السلام (تريد أن توهم الناس في يزيد، كأنك تصف محجوباً، أو تتعت غائباً، وقد دل يزيد من نفسه على موقع رأيه، فخذ ليزيد فيما أخذ به، ومن استقرائه<sup>(٢)</sup> الكلاب المتهارشة عند التحارش، والحمام السبق لأترابهن، والقينات نوات المعازف، وضروب الملاهي، تجده ناصراً، ودع عنك ما تحاول)<sup>(٣)</sup>.

فقال لهم معاوية (إني قائم إلى المنبر، فقاتل مقالة فإياكم أن تعترضوا عليّ حتى أمتها، واقسم بالله لئن رد عليّ رجل منكم في كلمة في مقامي هذا لا ترجع إليه كلمته

(١) ينظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٣ ص ٢١٤.

(٢) استقرائه الكلاب أي تتبعها. ينظر: ابن قتيبة، الإمامة والسياسة ج ١ ص ١٢١. الجاحظ، البيان والتبيين ج ١ ص ٣٠.

(٣) ينظر: ابن قتيبة، عيون الاخبار ج ٢ ص ٢٠، ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٢ ص ٢٤٧ و ٢٥٧. أبو علي القالي، الامالي ج ٢ ص ٧٣. المسعودي، مروج الذهب، ج ٢ ص ٦٩.

حتى يضرب رأسه) ثم قام في الناس خطيباً، فأعلن أن الحسين، وابن الزبير، وابن عمر، وابن أبي بكر قد بايعوا وسلموا وأطاعوا وهم لا يتكلمون.

فلما ولي يزيد الخلافة ارسل الى الوليد بن عتبة<sup>(١)</sup> عامله على المدينة ان يأخذ له البيعة من كبار الصحابة بالحجاز، فامتنع عبد الله بن الزبير والحسين بن علي عليه السلام وخرجا الى مكة وكتب الحسين إلى اهل الكوفة من اتباعه برأيه، فاجتمعوا هناك، وكتبوا له كتابا جاء فيه "أما بعد"<sup>(٢)</sup> فالحمد لله الذي قصم ظهر عدوك الجبار العنيد الذي اعتدى على هذه الامة، فانتزعتها حقوقها، واغتصبها امورها وغلبها على فيها، وتأمر عليها على غير رضا منها، ثم قتل خيارها واستبقى اشرارها، فبعداً له كما بعدت ثمود، انه ليس علينا امام فأقدم علينا فلعن الله ان يجمعنا بك على الهدى، فإن النعمان بن بشير<sup>(٣)</sup> في قصر الامارة ولسنا نجتمع معه في جمعة، ولا نخرج معه الى عيد، ولو قد بلغنا مخرجك اخرجنا من الكوفة وألحقناه بالشام<sup>(٤)</sup>، فسار الحسين عليه السلام الى العراق، فلقية جنود ابن زياد وعليها الحر بن يزيد التميمي فخطبهم

(١) الوليد بن عتبة : هو الوليد بن عتبة بن ابي سفيان بن حرب الاموي ، امير من رجالات بني امية كان واليا على المدينة سنة ٥٧هـ في أيام معاوية طلب البيعة ليزيد من الحسين عليه وعبد الله بن الزبير فرفضوا البيعة ليزيد وتوفي سنة ٦٤هـ / ٦٨٤م بالطاعون (ينظر: المصعب الزبيري ، نسب قريش ص ١٣٣ و ٤٣٣ . ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٢٠٢ و ٢٠٤).

(٢) ينظر: ابن قتيبة، الامامة والسياسة، ج ٢ ص ٣-٤ ، المسعودي، مروج الذهب ج ٥ ص ١٤٢، ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨ ص ١٧٢ الحسين، توفي سنة ٦١هـ / ٦٨٠ م .

(٣) النعمان بن بشير : هو النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة الخزرجي الانصاري ، ابو عبد الله أمير وخطيب وشاعر من الصحابة الاجلاء من اهل المدينة كان واليا على اليمن في زمن معاوية ثم الكوفة وبايع ابن الزبير . قال سماك بن حرب كان من اخطب ما سمعت له وهو الذي تنتسب اليه معرفة النعمان توفي سنة ٦٥هـ / ٦٨٤م ينظر ابن حجر العسقلاني ج ١٠، ص ٤٤٧، تهذيب التهذيب ، ابن الاثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد الخزري (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) اسد الغابة في معرفة الصحابة، ج ٥ ص ٢٢٠.

(٤) ينظر: الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ج ٤ ص ٢٦٢ ، ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ج ٣ ص ٢٦٢.

وقال<sup>(١)</sup> (أيها الناس انها معذرة الى الله عز وجل واليكم، اني لم آتكم حتى انتتي كتبكم، وقدمت على رسلكم، ان اقدم الينا، فإنه ليس لنا امام فإن كنتم على ذلك فقد جئتمكم، فإن تعطوني ما اطمئن إليه من عهدكم اقدم مصركم، وان لم تفعلوا وكنتم لمقدمي كارهين انصرفت عنكم الى المكان الذي أقبلت منه اليكم)) ثم جعل يخطبهم مرة بعد اخرى فكان مما قاله لرجال ابن زياد (ألا وإن هؤلاء قد لزموا الشيطان وتركوا طاعة الرحمن، واطهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، واحلوا حرام الله، وانا احق من غير، وقد انتتي كتبكم وقدمت على رسلكم ببيعتكم، انكم لا تسلموني ولا تخذلوني، فإن تمتم على بيعتكم تصيبوا رؤسكم وان لم تفعلوا ونقضتم عهدكم، وخلعتم بيعتي من اعناقكم فلعمري ما هي لكم بنكر، لقد فعلتموها بأبي واخي وابن عمي مسلم<sup>(٢)</sup>، والمغرور من اغتر بكم، ومن نكث فأنما ينكث على نفسه، وسيغني الله عنكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته)

وهذا نموذج آخر لإحدى خطبه عليه السلام وكانت خطبته هذه في الساعات

الاخيرة قبل اشتباك القتال بينه وبين الجيش الاموي. قال :

((ويلكم ما عليكم ان تتصتوا، لي فتسمعوا، قولي وانما ادعوكم الى سبيل الرشاد ، فمن اطاعني كان من المرشدين، ومن عصاني كان من المهلكين ، وكلكم عاص لامري، غير مستمع لقبولي، قد ملئت قلوبكم من الحرام وطبع على قلوبكم، وياكم؛

(١) الحر بن يزيد التميمي : هو الحر بن يزيد التميمي اليربوعي قائد من اشراف تميم كان من أنصار الحسين وقاتل معه بعد ان أرسل لقتاله أول الأمر توفي سنة ٦١هـ / ٦٨٠م. (ينظر: ابن قتيبة، الامامة والسياسة، ج٢، ص ٣-٤. ابن كثير، البداية والنهاية ج٨، ص ١٤٢، المسعودي، مروج الذهب ج٥ ص ١٤٢).

(٢) مسلم بن عقيل : هو مسلم بن عقيل بن أبي طالب سفير الحسين عليه السلام إلى أهل الكوفة ولاعقب له لأن جميع أولاده قتلوا معه بالكوفة ومقابرهم على طريق كربلاء من قضاء المسيب. (ينظر ابن سعد الطبقات الكبرى م ٤ ص ٢٩، ابو نصر البخاري، مبر السلسلة العلوية، ص ٤).

الا تتصتون؟ ألا تسمعون؟ ثم حمد الله واثى عليه وصلى على محمد وعلى الملائكة والانبيا والرسل، وابلغ في المقال، ثم أكمل خطبته فقال: (تبا لكم ايها الجماعة وترحا، احين استصرختمونا والهين، فأصرخناكم موجفين، سلتم علينا سيفا لنا في ايمانكم، وحششتم علينا نارا اوقدناها على عدونا وعدوكم، فأصبحتم البأ على اوليائكم، ويأ عليهم لأعدائكم، بغير عدل افشوه فيكم، ولا امل اصبح لكم فيهم الا الحرام من الدنيا انالوكم، وخسيس عيش طمعتم فيه، من غير حدث كان منا، ولا رأي نقيل لنا فهلا لكم الولايات - اذ كرهتمونا وتركتمونا، تجهتموها والين قشيم والجأش طامن، والرأي لما يستحصف، ولكن اسرعتم اليها كطيرة الدبا، وتداعيتم اليها كتداعي الفراش، فسحقا لكم يا عبيد الامة، وشذاذ الاحزاب ونبذة الكتاب، ونفثة الشيطان، وعصبة الآثام. ومحرفي الكتاب، ومطفئي السنن، وقتلة اولاد الانبياء، ومبيدي عترة الاوصياء، وملحقي العار بالنسب، ومؤذي المؤمنين وصراخ ائمة المستهزئين الذين جعلوا القرآن عضين، ولبنس ما قدمت لهم انفسهم وفي العذاب هم خالدون)

### تحليل الخطبة والمناسبة منها

في هذه الخطبة حدثهم الحسين عليه السلام عن انفسهم، وعن واقعهم، وعن زيف حياتهم، حدثهم كيف انهم استصرخوه على جلاديهم ثم انكفأوا مع هؤلاء الجلادين لهم عليه، هؤلاء الجلادون الذين لم يسيروا فيهم العدل، وانما حملوهم على ارتكاب الحرام في مقابل عيش خسيس، خسيس في نفسه، قليل دون الكفاية، خسيس لأنه يعمل على حد الاجل بحياة حقيرة ذليلة، خسيس باعتباره اجرا لعمل خسيس وحدثهم عن مواقفهم المتكررة من الحركات الاصلاحية، انهم دائما يظهرون العزم على الثورة والرغبة فيها، يظهرون العزم على تطوير واقعهم السيء، حتى اذا جد الجد انقلبوا جلادين للثورة بدل ان يكونوا وقودا لها، حدثهم القائد الثائر ضد الظلم والطغيان والانحراف عن الطريق السوي المستقيم عن اعدائه باعتبارهم اعدائهم

ايضا، ولكنهم يزيفون حياتهم بأيديهم، بحاربون محرريهم، من يعلمون انهم المحررون مع من؟ مع اعدائهم مذليهم وظالمهم. هذه الخطبة بهذا الأسلوب الثائر، وبما فيها من تفرع، وبما فيها من فضح لهم، كانت ملائمة تمام الملاءمة للجو النفسي السائد انذاك على الجيش الاموي فهي خطبة اجتماعية ودينية اصلاحية وسياسية مع اتجاهات الخطابة الثلاثة في هذا العصر . ان محاربي ذلك الجيش كانوا على علم بمن يحاربون فأراد ان يشعرهم بفداحة الائم الذي يقارفونه، وأراد الحسين البطل الذي ضحى بكل غال ونفيس، وباع نفسه وأهل بيته من أجل ان يشترى مرضاة الله تعالى تنفيذاً لأمر الله تعالى ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾<sup>(١)</sup> وقوله تعالى ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً﴾<sup>(٢)</sup>. واراد الحسين عليه السلام ان يسمع المجتمع الاسلامي هذا المجتمع الخاضع، صوته المدوي وبهذا اللون من البيان جعل الحسين عليه السلام من كل مسلم بركانا مدمرا على اهبة الانفجار وكذلك نجده في خطبة له وقد ظهر فيها العنصر الاجتماعي في ثورته حين التقى مع الحر بن يزيد الرماحي وقد كان ذلك بعد ان علم الحسين عليه السلام بتخاذل اهل العراق عنه بعد بيعتهم له وبعد ان تبين لهذا القائد البطل الشجاع ولمن معه من اهل بيته المصير الرهيب الذي ينتظرهم جميعا وبعد ان وضّح لأخيه محمد بن الحنفية في وصيته عن سبب خروجه الى اهل العراق حيث قال (اني لم اخرج اشرا، ولا بطرا ولا مفسدا، ولا ظالما، وانما خرجت لطلب الاصلاح في امة جدي اريد ان أمر بالمعروف وانهي عن المنكر، فمن قبلني بقبول الحق فانه اولى بالحق، ومن رد علي هذا اصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم، وهو خير الحاكمين)<sup>(٣)</sup> وعليه فان الاصلاح في امة جده

(١) سورة البقرة من الآية رقم (٢٠٧) .

(٢) سورة الاحزاب آية رقم (٢٣) .

(٣) ينظر: الطبري، تأريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٤٠٣، ابن الاثير، الكامل في التأريخ، ج ٣

ص ٢٨٠. العاملي، محسن الامين . اعيان الشيعة ، تحقيق : حسن الامين ، طبع مطبعة

الانصاف ، (بيروت ، ١٩٥٨م) ق ١، ص ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

محمد صلى الله عليه وسلم، هو هدفه من الثورة وهنا شيء اريد ان انبه عليه في قوله ( . . . فمن قبلني بقبول الحق فانه اولى بالحق) انه لم يقل: فمن قبلني لشرفي ، ومنزلتي في المسلمين وقرابتي من رسول الله وما الى ذلك لم يقل شيئا من هذا، ان قبوله يكون بقبول الحق فهذا داع من دعائه وحين يقبل الناس داعي الحق فأنما يقبلونه لما يحمله اليهم من الحق والخير لا لنفسه وفي هذا تعالٍ وتسامٍ عن التفاخر القلبي الذي كان رأس مال كل زعيم سياسي، او ديني في عصره رضي الله عنه

وهذا نموذج لخطبة له حين التقى بجيش الحر فقد خطب الجيش قائلاً:

(أيها الناس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من رأى سلطانا جائرا، مستحلا لحرام الله ، ناكثا لعهد الله مخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالاثم والعدوان، فلم يغير، ما عليه بفعل، ولا قول، كان حقاً على الله ان يدخله مدخله، الا وان هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان وتركوا طاعة الرحمن واطهروا الفساد وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، واحلوا حرام الله وحرموا جلاله وبركاته، وانا احق من غير قرأتني كتبكم، وقدمت علي رسلكم، ببيعتكم انكم لا تسلموني ولا تخذلوني، فان اتمت على بيعتكم تصيبوا رشدكم فأنا الحسين بن علي وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسي مع انفسكم، وأهلي مع اهلكم، فلکم في اسوة، وان لم تفعلوا ونقضتم عهدكم، وخلعتم بيعتي من اعناقكم فلعمري ماهي لكم بنكر لقد فعلتموها بأبي ماضي وابن عمي مسلم والمغرور من اغتر بكم فحظكم اخطأتم، ونصيبكم، ضيعتم ومن نكث فانما ينكث على نفسه وسيغني الله عنكم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته<sup>(١)</sup>)

(١) ينظر: الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٦ ، ص ١٨٨ - ٢٧٠، المسعودي، مروج الذهب،

## نموذج لخطبة الحر بن يزيد

قال الحر بن يزيد بعد ان انضم إلى الحسين عليه السلام في جماعة:  
(يا أهل الكوفة، افما لكم في واحدة من الخصال) التي عرض عليكم رضا،  
لامكم الهبيل العبر<sup>(٢)</sup>، اذ دعوتموه حتى اذا اتاكم اسلمتوه، وزعتم انكم قاتلوا انفسكم  
دونه، ثم عددتم عليه لتقتلوه، امسكتم بنفسه، واخذتم بكظمه<sup>(٣)</sup>، واحطتم به من كل  
جانب، فمنعتموه التوجه الى بلاد الله العريضة حتى يأمن ويأمن اصل بيته واصبح  
في ايديكم كالاسير، لا يملك لنفسه نفعا ولا يدفع ضرا وحلائموه<sup>(٤)</sup> ونساءه واصبييته  
عن ماء الفرات الجاري، الذي يشربه اليهودي والمجوسي والنصراني وتمرغ فيه  
خنازير السواد وكلابه، وهاهم قد صرعهم العطش، بنسما خلفتم محمدا في نريته، لا  
اسقاكم الله يوم الظما ان لم تتوبوا عما انتم عليه، ومن يومكم هذا، في ساعتكم هذه)  
ولكنهم مضوا في ضلالهم وقتلوا الحسين عليه السلام وآله واطنوه خيلهم ومثلوا به،  
وحملوا رأسه، كما حملوا النساء الى يزيد بدمشق .

(٢) الهبيل بمعنى الشكل والفقد والعبر بمعنى البكاء ، وجريان الدم . ينظر: ابن منظور، لسان

العرب، م ١١، ص ص ٦٨٦-٦٨٧

(٣) الكظم بمعنى مخرج النفس . ينظر: ابن منظور، لسان العرب، م ١٢، ص ٥٢٠

(٤) حلاه عن الماء تحليينا وتحلته أي بمعنى طرده ومنعه . ينظر: ابو بكر الرازي، مختار الصحاح،

ص ١٤٨ .

## نموذج لخطبة زياد بن ابيه في البصرة وهي التي تدعى بالبتراء<sup>(١)</sup>

زياد ابن ابيه كان واليا على البصرة ولكن حينما ولي البصرة والفسق فيها ظاهر والرذيلة فاشية، والاستهانة بالحدود وسطوة الحكام مستشرية فرجع في وجوههم سوطه، وشهر عليهم سيفه، ولكنه غلا في ذلك وبغى وحاول ان يقلد عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سياسته وشدته وحزمه، فبالغ وافرط وكانت خطابته هذه تصور سياسته في الحكم فرقى المنبر في البصرة فخطب خطبته البتراء لأنه لم يحمد الله فيها فقال (٢) أما بعد فإن الجهالة الجهلاء، والضلالة العمياء، والغبي الموفى بأهله على النار، ما فيه سفهاؤكم، ويشتمل عليه حلماؤكم من الامور العظام، ينبت فيها الصغير، ولا ينحاش عنها الكبير.. اني رأيت آخر هذا الامر لا يصلح الا بما صلح به أوله، لين في غير ضعف، وشدة في غير عنف، واني اقسم بالله لاخذن الولي بالمولى، والمقيم بالطاعن، والمقبل بالمدير، والمطيع بالعاصي، والصحيح منكم في نفسه بالسقيم، حتى يلقي الرجل منكم اخاه، فيقول "انج سعد فقد هلك سعيد" او تستقيم لي قناتكم، فأياي ودلج الليل، فأني لا اوتى بمدلج الا سفكت دمه، واياي ودعوى الجاهلية، فأني لا أجد أحداً دعا بها الا قطعت لسانه، ولقد احدثتم احداثا واحداثا لكل ذنب عقوبة، فمن غرق قوما غرقناه، ومن احرق قوما احرقناه، ومن نكب بيتا نقبنا

(١) وسميت بالبتراء لأنها كانت خالية من الحمد لله والشكر له، واوردها ابن قتيبة في عيون الأخبار ج٢، ص ٢٤١-٢٤٣ برواية أخرى في حوادث سنة ٤٥هـ. واوردها الطبري مقارنة لذلك كما اوردها صاحب العقد الفريد من رواية المدائني موافقة في كتاب البيان والتبيين ج٢ ص ٦٠-٦٥، ينظر: ابن الاثير، الكامل في التاريخ ج٣ ص ٢٢٦.

(٢) ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين ج٢ ص ٦٠-٦٥، الطبري، تأريخ الرسل والملوك، ج٦ ص ١٢٢ ابن الاثير، الكامل في التاريخ ح٣ ص ٢٢٦.

عن قلبه، ومن نبش قبراً دفناه حياً فيه، فكفوا عني ايديكم والسنتكم اكفف عنكم يدي  
ولساني.

أيها الناس إنا أصبحنا لكم ساسة، وعنكم زادة نسوسكم بسطان الله الذي اعطانا،  
ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما احببنا، ولكم علينا  
العدل فيما ولينا. ثم ختمها بقوله (واذا رأيتموني انفذ فيكم الامر، فأنفذوه على  
اذلاله<sup>(١)</sup> وايم الله ان لي فيكم لصرعى كثيرة، فليحذر كل امرئ منكم ان يكون من  
صرعاي)<sup>(٢)</sup>.

فهذه الخطبة مع ما يبدو فيها من العنف والبطش فيها حديث عن اللين في غير  
ضعف، والشدة في غير عنف وتصريح بأنه انما يسوس الرعية بسطان الله الذي  
اعطاهم، وينذود عنهم بفيئته الذي خولهم، وان له عليهم السمع والطاعة فيما احبه،  
ولهم عليه العدل فيما ولي، فكان في ذلك شبيها بمعاوية في حكمه.

### وهذا نموذج لإحدى خطبه في الكوفة

حيث قال (أما بعد فأنا قد جربنا وجربنا وسئنا وسائنا السائسون فوجدنا هذا  
الامر لا يصلح اخره الا بما صلح اوله بالطاعة اللينة المشبه سرها بعلايتها، وغيب

(١) اذلاله جمع ذل بكسر الذاو وهو من الشيء به هنا وجوهه وطرقه. ينظر: ابن منظور، لسان  
العرب، م ١١، ص ٢٥٩.

(٢) ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين ج ٢ ص ٦٠-٦٥، الطبري. تأريخ الرسل والملوك، ج ٦  
ص ١٢٢ ابن الاثير، الكامل في التأريخ ح ٣ ص ٢٢٦.

اهلها بشاهدهم، وقلوبهم بألسنتهم، ووجدنا الناس لا يصلحهم إلا لين في غير ضعف،  
وشدة في غير عنف، واني والله لا اقوم فيكم بأمر الا امضيته على اذلاله<sup>(١)</sup>.

### تحليل خطبة زياد هذه

فهذه السياسة التي اتبعها زياد بن ابيه في لينها وشدتها، واختلافها باختلاف  
دواعيها، صورتها الخطابية وافصحت عنها، فكانت ممثلة لحال الدولة في تقبلها، ولما  
عند الرعية من ملاينة ومقاومة ظاهرة أو خفية، وهو امام من انتهج سياسة البطش  
والقسوة بل زاد على غيره من الولاة في الامصار واربى وقرن القبول بالفعل،  
والتهديد بالتنفيذ وقد كان ذلك، لان العراق فاق سواه من البلاد في التمرد والخروج.  
وعدم قبول سياسة الساسة وتأتي ثورة الحسين عليه السلام في كربلاء على رأس هذا  
التأريخ لان تأريخ الثورات هو تأريخ الشعوب ولكي تبقى هذه الشعوب في يقظة  
دائمة لا يهملها البطش والاضطهاد والظلم وخنق حريتها ولكي لا تخدع عن  
انتصاراتها ولكي تبقى في وعي دائم لعملها التطويري الذي تمارسه يجب ان تكون  
في ثورة دائمة على اعدائها في الخارج والداخل لتحفظ بانتصاراتها وثورة دائمة  
على نفسها، تتناول نفسها بالنقد وتفحص موقفها دائما لئلا تتحرف وتزيغ وتأريخ  
الامة العربية الاسلامية يجسد الاساس التاريخي لشخصيتها العقائدية والنضالية  
فتعصمها شخصيتها العقائدية هذه من ان تزيغ او تتحرف، وتعصمها شخصيتها  
النضالية من الوهن والنكول وتأريخ امتنا العربية تأريخ مضيء فالثورات الحقيقية  
الهادفة والمعبرة عن طموحات الجماهير التي قامت بها امتنا عبر العصور كانت  
دائما تعبر تعبيراً تلقائياً حراً عن هذه الامة، وعن انسانيتها، وعن رغبتها الحارة في  
ان تعيش متمتعة بكافة حقوقها الانسانية وتأتي ثورة الحسين بن علي بن ابي طالب  
رضي الله عنهما في كربلاء على رأس هذا التأريخ فهي رأس الحرية في التأريخ

(١) ينظر: الطبري تأريخ الرسل والملوك ج ٦ ص ١٤٢ .

الثوري، وهي ثورة غنية بالعزم والتصميم على الماضي في النضال الدامي الى نهايته او النصر فقد عرضت على الثائرين امتع الحياة ولكنهم ابو هذه الحياة التي سيسكتون معها عن الظلم والعسف وارهاب الامة وهي ثورة امتحن ابطالها بأقسى ما امتحن به الثائرون على مدى التاريخ، فلم يهنوا ولم يتكلموا بل ثبتوا رغم كل شيء، ثائرين الى اللحظة التي توجوا فيها عملهم العظيم بسقوطهم صرعى في سبيل مبدئهم الحق ومن هنا تأتي ثورة الحسين من انها النموذج المحتذى، النموذج الذي جاء كاملا والذي يجب ان يستوحى وان ادوات الاداء الحديثة لتتيح امكانات لا حد لها لاستخدام تاريخنا الثوري في تطوير مجتمعنا، وفي ابراز شخصيته التاريخية لعينيه، ليعمل على تركيز نضاله الحديث على الاسس التاريخية والعقائدية لحركته النضالية الكبرى عبر العصور.

### نص خطبة السيدة زينب (1) في الكوفة

قالت (الحمد لله والصلاة على ابي محمد وآله الطيبين الاخيار: اما بعد: يا أهل الكوفة يا أهل الختل والغدر! أتبكون فلا رقأت الدمعة، ولا هدأت الرنة انما متاكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا تتخذون ايمانكم دخلا بينكم. الا وهل فيكم الا الصلّف النلّف؟ والصرر الشنّف وملق الاماء؟ وغمز الأعداء؟ أو كمرعى على دمنة؟ او

(1) زينب بنت علي بن ابي طالب رضي الله عنهما وامها فاطمة الزهراء رضي الله عنها وكنيتها ام كلثوم وام الحسن ولدت في الخامس من شهر جمادي الاول وزينب اسم جامع لشجرة او وردة والعقيلة وهي المرأة الكريمة النفيسة تزوجها ابن عمها عبد الله بن جعفر بن ابي طالب وكانت مع اخيها الحسين يوم استشهد في واقعة الطف وحملت الى دمشق وحضرت عند يزيد بن معاوية وتلقب ببطللة كربلاء لصبرها على ما شاهدته. (ينظر : المصعب الزبيري ، نسب قریش ص ٤١، ابن سعد، الطبقات الكبرى، ٨، ص ٣٩٩. ابن حجر العسقلاني ، الاصابة في تمييز الصحابة، ج ٤، ص ٣٢١ ابن الاثير ، اسد الغابة في معرفة الصحابة ج ٧، ص ١٣٢-١٣٣).

كفضة على ملحودة؟ ألا ساء ما قَدَمْتُمْ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَنْ سَخَطَ اللهُ عَلَيْكُمْ وَفِي الْعَذَابِ أَنْتُمْ خَالِدُونَ. أَتَبْكَونَ؟ وَتَتَحَبَّبُونَ، أَيُّ وَاللهِ فابْكُوا كَثِيرًا وَاضْحَكُوا قَلِيلًا. فَلَقَدْ ذَهَبْتُمْ بِعَارِهَا وَسَنَارِهَا، وَلَنْ تَرَحُّضُوهَا بِغَسْلِ بَعْدِهَا أَبَدًا. وَأَنْتَى تَرَحُّضُونَ قَتْلَ سَلِيلِ خَاتَمِ النَّبُوَّةِ؟ وَمَعْدِنِ الرَّسَالَةِ، وَسَيِّدِ شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَلَاذِ خَيْرَتِكُمْ، وَمَفْزَعِ نَازِلَتِكُمْ، وَمَنَارِ حُجَّتِكُمْ وَمِدْرَةِ سَنَّتِكُمْ؟ أَلَا سَاءَ مَا تَزْرُونَ، وَبَعْدًا لَكُمْ وَسُحْقًا، فَلَقَدْ خَابَ السَّعْيُ وَتَبَّتْ الْيَدَايُ وَخَسِرَتِ الصَّفَقَةُ، وَبُؤْتُمْ بِغَضَبِ مَنْ اللهُ وَضُرِبَتْ عَلَيْكُمْ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ. وَيَلِكُمْ يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ! أَتَدْرُونَ أَيَّ كَبَدٍ لِرَسُولِ اللهِ فَرَيْتُمْ؟ وَأَيَّ كَرِيمَةٍ لَهُ أَبْرَزْتُمْ؟ وَأَيَّ دَمٍ لَهُ سَفَكْتُمْ؟ وَأَيَّ حُرْمَةٍ لَهُ هَتَكْتُمْ؟ لَقَدْ جَنَّتُمْ بِهَا صَلْعَاءَ عِنْقَاءِ سُودَاءِ قَمَاءِ خَرْقَاءِ شَوْهَاءِ كَطَلَاعِ الْأَرْضِ وَمِلءِ السَّمَاءِ. أَفَعَجِبْتُمْ أَنْ مَطَرَتِ السَّمَاءُ دَمًا، وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْزَى، وَأَنْتُمْ لَا تُتَصَرَّوْنَ، فَلَا يَسْتَخْفِنُكُمْ الْمُهْلُ، فَأَنَّهُ لَا يَحْقِرُهُ الْبِدَارُ، وَلَا يَخَافُ فُوتَ الثَّارِ، وَإِنَّ رَبَّكُمْ لِبِالْمُرْصَادِ<sup>(١)</sup>.

### تحليل الخطبة

قال الراوي وهو بشير بن خزيم الاسدي ونظرت الى زينب عليها السلام يومئذ فلم ار خفرة والله - انطق منها، كأنها تفرغ عن لسان امير المؤمنين علي ابن ابي طالب رضي الله عنه، وقد أومأت الى الناس ان اسكتوا، فارتدت الانفاس وسكنت الاجراس ويقول بشير ايضا فوالله لقد رأيت الناس يومئذ حيارى يبكون، وقد وضعوا ايديهم على افواههم، ورأيت شيخاً واقفاً الى جنبي يبكي حتى اخضلت لحيته وهو يقول (بابي أنتم وأمي!! كهولكم خير الكهول، وشبابكم خير الشباب، ونساؤكم خير النساء، ونسألكم خير نسل لا يخزي ولا يبزي) قبل ان ابدأ بشرح وايضاح بعض

(١) ينظر: ابو الفرج الاصفهاني، علي بن الحسين الاموي (ت ٣٥٦هـ/٩٦٦م) مقاتل الطالبين، تحقيق السيد أحمد صقر، طبع دار احياء الكتب العربية بالقاهرة، ١٩٤٩م ( ابن طاووس، الدين ابن القاسم علي بن موسى بن جعفر بن محمد (ت ٦٦٤هـ/١٢٦٥م)، كتاب الملهوف، علي قتلى الطفوف ص ص ١٩٣-١٩٤ .

كلمات الخطبة للسيدة الفاضلة والبطلة ما قاله الراوي (فلم أرَ خَفْرَةَ والله -انطق منها) فيقال خَفِرَت الجارية كاذًا استحت اشدَّ الحياء فهي خفرة ومن الطبيعي ان المرأة الخفرة يمنعها حياؤها من ان ترفع صوتها او تخطب في مكان مزدحم، فمن الواضح انها اذا لم تمارس الخطابة لا تقوى على النطق والتكلم كما ينبغي، ولكن راوي هذه الخطبة يقول فلم أر خفرة والله انطق منها أي لم اراقوى منها على التكلم واقدر على الخطابة، رغم كونها شديدة الحياء وكأنها تفرغ عن لسان امير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه والامام علي امام الخطباء والبلغاء والمتكلمين ولقد كان له اسلوب خاص ومستوى رفيع في كلامه وخطبه فمن ناحية كان الامام يسترسل في الكلام دون أي توقف او شرود ذهني وكان ينطق بالحروف دون أي تلوذ في التلفظ فقد كان في غاية التمكن من الكلام والخطابة وكانت انكلمات تتبع من لسانه تبعاً صافياً طبيعياً والراوي كان من سمع كلام امير المؤمنين وهو الان يستمع الى كلام زينب ابنته وكان كلامها صورة طبق الاصل لكلام ابيها من ناحية الاسلوب والبيان والمستوى. في ذلك المجتمع المملوء بالاصوات والهتافات المرتفعة من الناس واصوات الاجراس المعلقة في اعناق الابل، في بلدة انتشر في جميع طرقها الالاف من الشرطة كي يخفقوا كل صوت يرتفع ضد السلطة ويراقبوا حركات الناس وسكناتهم بكل دقة ويقضوا على كل انتفاضة متوقعة في هذه الظروف وصل موكب آل رسول الله صلى الله عليه وسلم محاطا بالحرس في تلك الاجواء والظروف، اشارت السيدة زينب الكبرى عليها السلام البطلة الشجاعة القائد الى الناس ان اسكتوا وبذلك احتبست الانفاس في صدور الناس ووقفت الابل وسكنت عن الحركة، وسكنت الاجراس المعلقة في اعناق الابل نعم، باشارة واحدة، وبذلك الروح المؤمنة بقدر الله وقضائه القوية، والنفس المطمئنة، استولت على الموقف فقالت الحمد لله الصلاة على ابي محمد وآله الطيبين الاخيار، فقد افتتحت كلامها بحمد الله، وصَلَّت على جدها رسول الله، وهذا هو منتهى البلاغة، وقالت الصلاة على ابي محمد وهذا تعبير مجازي، لكنها نسبت نفسها الى جدها محمد صلى الله عليه وسلم الذي اعتبرته بمثابة

أبيها ثم وصفت أهل الكوفة بأهل الختل<sup>(١)</sup> والغدر وهو أنهم مخادعون وغادرون وليس هذه المرة وإنما هم سبق وان غدروا بأبيها يوم صفين وخذلوا أخاها الحسن عليه السلام وغدروا بسفير الحسين بن علي (مسلم بن عقيل) حينما بايعه الألاف من أهل الكوفة ثم تفرقوا عنه، واستطاع عبيد الله بن زياد ان يلقي القبض عليه ويقتله وهاهم اليوم يغدرون بأخيها الحسين ولكنها لم تتخذع بأصوات بكائهم وقالت لهم أتبكون وهذا البكاء هو النفاق بعينه وما فائدة البكاء وقد علقت رؤوس الأبطال الشجعان على رؤوس الحراب وهم يشاهدون حفيدات الرسالة وبنات الامامة على النفاق. من الطبيعي ان يبكي كل من يشاهد هذه المشاهد، ولكن اكررها مرة اخرى ما فائدة هذا البكاء فهم قد نفذوا امر الطغاة، والحاكم الطاعي لا يستطيع الظلم والتعدي الا مع وجود الارضية المساعدة، والاجواء الملائمة للظلم والطغيان، والناس بنفاقهم وخذلانهم لآل الرسول الكريم، هم الذين مهدوا للظالمين القيام بتلك الفاجعة المروعة، وهذا درس لكل مجتمع يؤمن بالله واليوم الآخر ويؤمن بمبادئ السماء ويريد ان يعيش في ظل حكومة عادلة. ثم قالت، فلا رقأت الدمعة أي بمعنى سكنت وانقطعت بعد جريانها وجفت ولا هدأت الرنة والرنة هنا الصوت الحزين عند البكاء. ثم تخللت خطبة السيدة زينب الكبرى بعد ان رأت ذلك البكاء الذي كله نفاق بأن دعت عليهم ومن ذلك القلب الملتهب بالمصائب والاحزان، دعت عليهم ان تمر عليهم ظروف واحوال تجعل بكاءهم متواصلًا ودموعهم مستمرة في الجريان، لا تهدأ ولا تتقطع، ولا تهدأ رنتهم أي بكاءهم المصحوب بالنعيب والعويل، وهنا نقطة مهمة يجب ان لا تغفل عنها، وهي رغم ان في اغلب المجتمعات يوجد الاخيار والاشرار والطيبون وغيرهم، ومدينة الكوفة كانت كذلك ألا ان الطابع العام عليهم في ذلك اليوم هو التلون كل يوم بلون، والغدر، وقلة الالتزام بالاسس الدينية.

(١) الخائل بمعنى الغادر ، ينظر ابو بكر الرازي ص ١٦٩.

من هنا .. فإذا جاءهم حاكم طاغ وعرف منهم هذه الطبائع والصفات المذمومة يسهل عليه التسلط عليهم واتخاذهم مساعدين واعواناً له في تحقيق اهدافه في التسلط والتعسف والظلم، وهم يسارعون الى التجاوب والتعاطف معه غير مباليين بنتائج ذلك، وعلاج هذا المجتمع هو التكلم معهم بكل صراحة، وبالكلام اللاذع، ولهذا نجد ان خطبة السيدة زينب واجهتهم بهذا الكلام اللاذع فلم تعد النصائح والمواعظ تؤثر عليهم والسيدة زينب بملاحظة انها امرأة وانها بنت الامام علي كرم الله وجهه كانت لها القدرة على التعنيف في الكلام مع الناس ولا تملكها ايضا القدرة العظيمة على البيان والخطابة، فقد كانت مؤهلة للقيام بهذا الدور الكبير لايقاظ بعض تلك الضمائر الميتة من سباتها، ولا نعلم بالضبط كيفية القائها للخطبة من ناحية درجة الحماس والحرارة ، ولكننا نعلم انها ورثت الخطابة من أبيها امام الفصاحة وامام نهج البلاغة. ثم استخدمت التشبيه في خطبتها حينما قالت (انما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوة انكائاً) لقوله تعالى (ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة انكائاً تتخذون ايمانكم دخلاً بينكم)<sup>(١)</sup>. ومثلتهم بالمرأة ولعل اسمها زينة أو (ريضة) بنت عمرو بن كعب كما جاء ذلك في كتب التفسير وهي امرأة حمقاء من قريش كانت تغزل مع جواريتها الصوف والشعر من الصباح الى نصف النهار وتصنع بذلك خيوطاً جاهزة للنسيج، ثم تأمرهن ان ينقضن ما غزلن طوال هذا الوقت ولا يزال دأبها ذلك والجنون فنون من بعد قوة أي كانت تتكث غزلها من بعد احكام واتقان واستحكام وقتل للغزل، في المرة الاولى وكأنها تريد ان تصنع من ذلك الغزل اقمشة، فبعد النكث والنقض كان يفقد الصوف معظم قوته. وانكائاً جمع نكث وهو الصوف والشعر- يبرم ويعمل منه الخيوط، ثم يُنكث ويُقْل ليُغزل مرة ثانية. وقد شبه الله تعالى ناقض العهد بتلك المرأة التي نقضت غزلها من بعد قوة واتقان ثم قالت في خطبتها الغراء (تتخذون ايمانكم دخلاً بينكم) والايمان جمع يمين وهو القسم والحلف،

(١) سورة النحل : آية ٩٢ .

والدخل بمعنى المكر والخيانة إذ ارادت بان هؤلاء القوم كانوا يحلفون بالوفاء بالعهد ويضمرون في أنفسهم الخيانة وكان الناس يطمثون الى عهدهم لكن اولئك كانوا ينقضون العهد، وبعد هذا التمهيد .. نقول لقد شبهت السيدة زينب عليها السلام اهل الكوفة بتلك المرأة الحمقاء من ناحية عدم الوفاء بعهودهم ونقضهم لها بسبب صفة الغدر المتجذرة في نفوسهم اللثيمة، البعيدة عن الانسانية، وعن التفكير في نتائج الامور ومضاعفاتها .

الا وهل فيكم الا الصِّلْفُ النَّطْفُ: والصلف: اذا قلنا صلفَ الرجلُ: تَمَدَحَ بما ليس عنده اعجاباً بنفسه وتكبراً ويقال: اصلفتُ الرجلُ إذا أبغضته ومقته ويُعَبَّرُ عن البخيل ايضاً بهذه الكلمة. هذا عند علماء اللغة ولكن يتبادر الى الذهن في قول السيدة زينب هنا من كلمة الصلف: هو الوقح ولا مانع من تفسير هذه الكلمة بهذا المعنى: فبكاؤهم بعد ارتكابهم تلك الجرائم يدل على شدة وقاحتهم وقلة حياءهم، والنطف<sup>(١)</sup> بمعنى المتلطف بالعيب، والصدر الشنف بمعنى: الشنف<sup>(٢)</sup> أي البغض والشنف بمعنى المُبغض والمعنى في هذا الصدر الذي يحتوي على شدة البُغض والعداء لاهل البيت (وملقُ الاماء) الملق<sup>(٣)</sup> هنا الوُدُ واللطف وان تعطي باللسان ما ليس في القلب والفعل والمعنى: انكم يا اهل الكوفة مجتمع للصفات الرذيلة ففيكم حالة التملق والتذلل لمن لا يستحق ذلك من الحكام الخونة فكما ان الاماء جمع أمة وهي العبدة: يتملقن الى المالك لجلب مودته ويُعطينه باللسان من الوُدِ والمشاعر ما ليس في قلوبهن، بل يفكرن في مصالحهن حتى لو استوجب ذلك لهنّ التذلل والتملق والخضوع لمن ليس اهلاً لذلك انتم يا اهل الكوفة كذلك يتملقون الى حكامكم.. من مُنطلق المصالح لا الاخلاص والوفاء. واما قولها (وَعَمَزُ الاعداء) فالعَمَزُ<sup>(٤)</sup> بمعنى الاشارة بالجفن والحاجب ولعل السيدة زينب تقصد من هذه الكلمة انكم يا اهل الكوفة انتم غمز الاعداء أي ان اعداء الحسين عليه السلام ينظرون اليكم من جانب عيونهم غمزاً

(١) ينظر: ابن منظور، لسان العرب، م٩، ص٣٣٧

(٢) ينظر: أبو بكر الرازي، مختار الصحاح ص٣٤٨ .

(٣) ينظر: ابن منظور، لسان العرب، م١٠، ص٣٤٧.

(٤) ينظر: ابو بكر الرازي، مختار الصحاح ص ٤٨١ .

ويتعاملون معكم بمنتهى التحقير والاذلال، فلا كرامة لكم عندهم بل يريدونكم عبيداً وجسوراً للوصول الى اهدافهم من دون ان يكونوا اليكم آية محبة او تقدير او احترام فيعتبر هذا الكلام من السيدة زينب تتيبها لاهل الكوفة على مدى فقدان عزة النفس لديهم حيث جعلوا انفسهم ادوات طيعة وذليلة بيد افراد لؤماء وهم ناسين للكرامة التي ارادها الله تعالى للبشر واننا نرى في زماننا هذا ان الموظفين المتكبرين لا يرفعون رؤوسهم ليستمعوا الى ما يقوله المراجع لهم بل ينظرون بجانب عيونهم تحقيراً واذلالاً له لان خطبة السيدة زينب هنا هي ليست مجرد كلمة قالتها في وقتها عبثاً ولا هي مجرد تعبير عن عواطفها ومشاعرها اتجاه السيد الحسين عليه السلام بل هي درس تربوي لكل جيل ولكل مؤمن ومؤمنة وهي منهاج عمل لكل امرأة مسلمة ومسلم فليست هي خطبة قد قيلت في زمن مضى وانتهى كل شيء بل هي ثورة قائمة، للثوار المسلمين في كل زمن، وهي كلمة حق عند السلطان الظالم، وهذا ما اكده جدها رسول الله في قوله (ان من اعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر) وحينما نكتب خطبتها لا يعني هذا من باب تسطير كلمات وحفظها وتداولها والتبكي عليها وانما هي منهاج عمل لكل من يريد ان يعيش في ظل الاسلام وينتهج الاسلام سلوكاً وعملاً ليجزى من الله الجزاء الاوفى، ولكن نعود ونذكر مرة اخرى انه كان في الكوفة جمع غفير من المؤمنين الاخيار الطيبين لكن هؤلاء كانوا قلة والاشرار يتعاونهم مع الحكم الفاسد آنذاك كانوا قد شكلوا هذه الواجهة القبيحة وكونوا هذه السمعة السيئة لاهل هذا البلد ثم شبهتهم بالذمينة وهو المحل الذي تتراكم فيه اوراث الحيوانات وابوالها ثم استعملت السيدة زينب التشبيه في اللغة فقالت (او كفضة على ملحودة)<sup>(١)</sup> واللحد هنا بمعنى القبر والملحودة: بمعنى الجثة الموضوعة في القبر وهذا يوضح انه اذا وضعت علامة مصنوعة من الفضة على قبر رجل منحرف دينياً فسوف يكون ظاهر القبر جميلاً ولكن الجثة التي في داخل القبر جيفة متعفنة، كذلك اهل الكوفة كانوا اهل التمدن والحضارة والثقافة لكنهم في الباطن كانوا بمنزلة الجيفة، حيث تجمعت فيهم المساوئ الاخلاقية كنقض العهد والغدر والخيانة فكانت لهم سوء الملف والسوابق المخزية وفي نسخة كتاب الاحتجاج للشيخ الطبرسي<sup>(٢)</sup>

(١) ينظر: أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص ٥٩٣.

(٢) ينظر: الطبرسي، ابو منصور، أحمد بن علي بن أبي طالب، (٦٢٠هـ / ١٢٢٣م)، تعليقات وملاحظات: محمد باقر الموسوي الخراساني، ط ٢ مؤسسة الاعلمي، (بيروت، ٢٠٠٠م) كتاب الاحتجاج، ج ٢، ص ٣٠٤-٣٠٥.

أورد قول زينب فقال (كَقَصَّةٍ عَلَىٰ مَلْحُودَةٍ) وَالْقَصَّةُ<sup>(١)</sup> هُنَا بِمَعْنَى الْجِصِّ وَهِيَ الْبُودِرَةُ وَالتَّرَابُ الْمَطْبُوحُ الَّذِي يَخْلُطُ مَعَ الْمَاءِ فَيَصِيرُ طِينًا أبيض اللون ويوضع ذلك الطين ما بين الطابوق ويكون سبباً لتماسك أجزاء البناء فما فائدة ذلك القبر الذي يُجَصِّصُ ليكون جميل الظاهر لكنه يتضمن جثماناً ننتا لرجل خبيث أو امرأة منحرفة وقد يُستفاد من بعض كتب التاريخ ان المتفرجين والمستمعين لخطاب السيدة زينب الكبرى رضي الله عنها، انقسموا الى ثلاثة أقسام، قوات الشرطة التابعين لعبد الله بن زياد، والمحايدين، والافراد الذين تفاعلوا مع كلمات خطبة السيدة زينب وتأثروا بكلامها، وبدأوا يبكون وهم يسمعون صوت الحق ينادي ويقول ان الحق كل الحق مع الحسين، معنا اهل البيت ولكن هل من مجيب وهذا الصوت هو نفسه صوت الامام امير المؤمنين علي عليه السلام من ابنته الشجاعة واقول لو كان علي حي وهو حي عند الله لما استطاع هؤلاء الشرذمة الضالة ان تتجاوز على اهل بيته ولكن أقول، وأقول، واقول كما قال الخليفة عمر بن الخطاب يوماً في حق علي عليه السلام (تباً لدنيا خلت من علي بن ابي طالب- تباً لدنيا خلت من علي بن ابي طالب- تباً لدنيا خلت من علي بن ابي طالب) ثم قالت سيدتنا زينب (ألا ساء ما قدمت لكم انفسكم ان سخط الله عليكم، وفي العذاب انتم خالدون) وهذه الجملة مقتبسة من قوله تعالى ﴿تَبْرَىٰ كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِيْنَ

كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُمْ اَنْفُسَهُمْ اِنْ سَخَطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾<sup>(٢)</sup> والمعنى: بنس ما قدموا من العمل لمعادهم في الآخرة ان سخط الله عليهم والمعنى هنا يا اهل الكوفة ان اعمالكم قد اوجبت عليكم غضب الله وسخطه والبقاء الدائم في نار جهنم.

(أنتبكون وتنتحبون؟ والانتحاب هو رفع الصوت بالبكاء الشديد ثم قالت أي والله (فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً) إشارة إلى قوله تعالى ﴿فليضحكوا قليلاً وليبكوا

(١) القصة بالفتح بمعنى الجصّة على لغة اهل الحجاز، ينظر: ابو بكر الرازي، مختار الصحاح ص ٥٣٨.

(٢) سورة المائدة اية رقم (٨٠).

كثيراً<sup>(١)</sup> والمعنى فليضحك هؤلاء المنافقون قليلاً لأن الضحك حتى لو استمر فإنه ينتهي بفناء الدنيا وهو قليل لدى المقايسة مع بكاؤهم الدائم في يوم القيامة لأن ذلك (يوم كان مقداره خمسين ألف سنة)<sup>(٢)</sup> وهم سيكون فيه كثيراً وباستمرار. وهذا تهديد وانذار من السيدة زينب لأهل الكوفة وليس امراً لهم بالضحك بل أمر بالتقليل من الضحك وتهديد ضمني- ان لا مبرر لضحك وفرح يتعقبه بكاء طويل وعذاب مستمر (فلقد ذهبتم بعارها وشنارها)<sup>(٣)</sup> يقال: ذهب بها أي استصحبها والعار بمعنى كل شيء يلزم منه عيب أو كل ما يُعير به الإنسان من قولٍ أو فعلٍ أو يلزم منه عيب أو سب والشنار هنا بمعنى العيب والعار، والأمر المشهور بالشنعة وقولها (ولن ترخصوها بغسلٍ بعدها ابداً) ترخصوها: بمعنى تغسلوها والغسل ما يُغسل به كالماء والمواد المنظفة المزيلة للوساخ، وقد يقوم الإنسان بجريمة صغيرة، يستطيع محاصرة مضاعفاتها، وقد تكون الجريمة كبيرة جداً يحاصر أحد مضاعفاتها واثارها أو ينسب الغفلة أو السهو والاشتباه إلى مباشر تلك الجريمة، ويجعل الاعتذار سبباً، وطريقاً للعفو عن ذلك المجرم، واغلاق ملفه فالمعنى هنا لا يمكن لكم التخلص من مضاعفات هذه الجناية العظمى فقد تعلقت الجريمة بقتل آل الرسول الكريم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بأعناقكم، وسجلت في التاريخ بحيث لا يمكن تغطيتها أو انكارها!! أو ذكر توجيهاً واهية وسخيفة لهذا الجرم العظيم والذنب الجسيم. ثم قالت

(١) سورة التوبة آية رقم (٨٢)

(٢) سورة المعارج آية رقم (٤)

(٣) ينظر: أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص ٤٦٥.

(وأنتى تَرَحُّضُونَ قَتْلَ سَلِيلِ خَاتَمِ النَّبُوَّةِ)<sup>(١)</sup> أي بمعنى كيف تَغْسِلُونَ عن أنفسكم وتمحون وتمسحون عن ملفكم هذه الفاجعة العظيمة وهي قتل ابن بنت رسول الله ومعنى السليل هنا الولد، وبمعنى آخر كيف وبأي وجه يمكن لكم ان تسوغوا قتل سليل خاتم النبوة وهذا تعبير مجازي (ومعدن الرسالة)؟ وسيد شباب أهل الجنة والحسين الشهيد البطل كان مشهورا عند جميع المسلمين بكل ما للعظمة والجلالة والقداسة من معانٍ وأقوال الرسول كثيرة في حفيدته الحسين كقوله (حسين مني وأنا من حسين)<sup>(٢)</sup> (احب الله من احب حسيناً) فجرمة قتل الحسين رضي الله عنه الله عنه لا يمكن ان تُقاس بجرمة قتل غيره من الابرياء لأن المقتول هنا يحمل مبادئ الإسلام كلها التي ورثها من جده رسول الله وعن والده الامام الذي استقى علمه وفكره من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الله عليه وسلم وقد تربى منذ صغره في بيت رسول الله وهو الامام الذي يجب ان ينتخب ليكون اماماً وخليفة للمسلمين حينما نصحه أخوه في الإسلام عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه الله عنهما بعدم الخروج إلى الكوفة وقالوا له ابق في هذا المسجد ونجمع لك المسلمين لتكون سيدهم وأمرهم ولكنه رفض لأن الله أراد له ان يكون شهيدا ليلحق بجده وأبيه وامه واخيه في الجنة ولكي يعطي درسا للمسلمين أن يقولوا لا للظالم، لا للطغيان، ولا للاستبداد في كل زمان ومكان، وليقيموا ويشيدوا دولة الإسلام الكبرى وليعيش الناس بحرية وامان وسلام وعدل ومساواة إلى ان تقوم الساعة وهذا ما يريد الله عندما اختار آدم ليكون خليفة لله في أرض الله. (واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة)<sup>(٣)</sup> وعليه فان قتل الحسين عليه السلام هو خسارة كبيرة للمسلمين بل هو قتل الاسلام كله وقتل الايمان كله ولكن أقول كما قال

(١) ينظر: ابو بكر الرازي ، مختار الصحاح ص ٢٣٧ .

(٢) كتاب بحار الانوار ج ٤٣ ص ٢٦١ .

(٣) سورة البقرة من الآية رقم (٣٠).

الخليفة ابو بكر رضي الله عنه (من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت) وقول السيدة زينب (وملاذ خيرتكم) والملاذ<sup>(١)</sup> هنا الملجأ والحصن الآمن الذي يُحتمى به ويلجأ إليه في الشدائد. وخيرتكم من المؤمنين الابرار والمتفوقين في درجة ايمانهم كالتقوى والعقيدة الراسخة وحماية الدين وتقديمه على كل مصلحة.

وقولها (ومفرع نازلتكم) المفرع من يفزع اليه ويلتجأ إليه والنازلة هنا بمعنى الشديدة من شدائد الدهر، تنزل بالقوم وقيل النازلة هي المصيبة الشديدة ثم قالت (ومنار حُجبتكم) والمنار هنا بمعنى محل اشعاع النور والحجة تعني الدليل والبرهان للاستدلال على حقيقة الشيء والمنار محل على سطح الدار، كان الانسان الكريم يُشعل النار فيه ليلاً ليعلم للناس ان هنا محلاً للضيافة فيستدل فيه ليلاً التائهون عن الطريق، او المسافرين الذين وصلوا الى البلد لتوهم وهم يبحثون عن مأوى يلجأون اليه حتى يحين الصباح وتُطلق هذه الكلمة حالياً على الاضواء الكشافة القوية في درجة الاضاءة التي توضع على ابراج المراقبة في مطارات العالم لارشاد الطائرات الى محل المطار وخاصة في الليالي التي يُخيم الضباب على سماء المدينة. ولقد جعل الله الحسين عليه السلام مصباح الهدى ينير الدرب لكل تائه او متحير فهو امام من لا امام له وشيخ من لا شيخ له، بعد رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ولكن الناس تجمعوا عليه وكسروا المصباح وهم غير مباليين بما ينتج عن ذلك من مضاعفات، ففي الظلام تقع حوادث السرقة والسطو على المنازل والبيوت وجرائم

(١) الملاذ هنا بمعنى الملجأ. ينظر: أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص ٦٠٨. ابن منظور، لسان

الاغتصاب والقتل، والضياع عن الطريق ، والسقوط في الحفائر وغير ذلك اما مع وجود المصباح فلا تحدث هذه الجرائم والمآسي وكان الحسين مناراً لمن يبحث عن الحقيقة ويسأل عن الدين، ويريد الحصول على ردّ الشبهات وما يتبادر الى الازهان من تشكيكات. واما قولها (ومدرّة سنّتكم) السنّة: العام القحط وقيل السنّة المُجْدِبَة<sup>(١)</sup> وقيل غلب اطلاق كلمة (السنّة) على القحط مثل ما غلب اطلاق كلمة (الدابة على الفرس. هذه هو معنى السنة ولم اعثر في المعاني التي ذكرت في كتب اللغة معنى لكلمة "مِرّة" يتناسب مع كلمة "سنّتكم" ويحتمل ان يكون تصحيحاً لكلمة "ومدّد" أي من يزودكم بالمؤمن المادية في سنوات القحط والجذب ويخلصكم من المجاعة والموت او بمعنى يزودكم بالادلة المعنوية حينما تختارون في قضاياكم الدينية ومشاكلكم العائلية، وتتلاعب بأفكاركم التشكيكات والافكار المنحرفة، او المستحدثة، فتعيشون في ضياع، لا تفرقون بين السنة والبدعة وبين القول الحق والاقوال الباطلة المصبوغة بصبغة الدين ثم زادت السيدة زينب الكبرى من درجة توبيخ الناس مما له منها لايقاظ تلك الضمائر ولتعلن لهم انهم سوف لا يصلون الى أي هدف تحركوا من اجله فقاموا بهذه الجريمة النكراء فقالت (ألا ساء ما تترّون) أي: بس ما حملتم على ظهوركم من الذنوب والجرائم، فهي من نوع لا يبقي أيّ مجالٍ لشمول غفران الله وعفوه .. لكم.

(١) ينظر: ابو بكر الرازي ، مختار الصحاح ص ٣١٧ .

(وَبُعْدًا لَكُمْ سُحْقًا)<sup>(١)</sup> أي ابعدكم الله تعالى بُعْدًا عن رحمته وغفرانه وسحقاً أي هلاكاً وبعداً يقال سَحِقَ سُحْقًا أي بَعُدَ اشَدَّ البعد.

(فلقد خاب السعي، وتبّت الايدي) أي خاب ولم ينل ما طَلَبَ او انقطع رجاؤه. وتبّت الايدي والتبُّ<sup>(٢)</sup> بمعنى الخسران والهلاك وقيل القطع والبت (وخسرت الصفقة) والصفقة بمعنى معاملة البيع او اية معاملة اخرى والمعنى انكم يا اهل الكوفة خسرت المعاملة معاملة بيع الدين والآخرة في قبال الدنيا فمن الجنون ان يبيع الانسان ذلك في قبال عذابٍ مستمر مزيج بالاهانة والتحقير، وبثمن قتل ابن بنت رسول الله كل ذلك وهو يدعي انه مسلم ولعل المعنى: انكم بعتم الحياة في ظل حكومة الامام الحسين بالحياة في ظل السلطة الدنيوية فلا كرامة، ولا امان، ولا مستقبل زاهر مع هذه السلطة التي فضلتموها على قتل داعية الاسلام، ومنهج الاسلام، امامكم وسيدكم ومولاكم الحسين رضي الله عنه وارضاه. ان الدين والانضواء تحت لواء من اختاره الله تعالى هو الذي يوفر للانسان الحياة السعيدة والعزة والكرامة اما الاعراض عن ذلك فسوف يجرّ الولايات لكم وبذلك فسوف تتوالى عليكم حكومات جائرة فتعيشون حياة ممزوجة بالتعاسة والذل الشامل لجميع جوانب حياتكم الدينية والاقتصادية والسياسية والامنية. ثم اقتبست السيدة زينب رضي الله عنها من القرآن الكريم واستلهمت منه عندما قالت (وبؤتم بغضب من الله ، وضربت عليكم الذلة والمسكنة

(١) ينظر ابو بكر الرازي ، مختار الصحاح ص ٥٧ .

(٢) ينظر : م . ن ، ص ٧٤ .

لقوله تعالى ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبُأْوُوا بِغَضَبِ اللَّهِ.....﴾<sup>(١)</sup> ويؤتم بغضب من الله أي رجعتم وقد احتملتم معكم غضبا من الله تعالى، وسوف يسبب لكم هذا الغضب العقاب الاليم، والبعد عن رحمة الله، وغفرانه، بكل تأكيد. وان الجريمة مهما كان حجمها فسوف يكون غضب الله اشد، وبالتالي يكون العذاب اكثر ايلاما واشد اهانة وتحقيرا ويكون بعد المجرم عن عفو الله وغفرانه اكثر مسافة .

(وَضُرِبَتْ عَلَيْكُمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ) وَضُرِبَتْ بِمَعْنَى كُتِبَتْ فَلَقَدْ كَتَبَ اللَّهُ تَعَالَى لَكُمْ الذَّلَّةَ وَقَدَّرَ لَكُمْ الْمَسْكَنَةَ، بِسَبَبِ كُفْرَانِكُمْ بِنِعْمَةِ وَجُودِ الْإِمَامِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالغَرَبُ بِهِ: وَالذَّلَّةُ وَالذُّلُّ بِمَعْنَى الْهَوَانِ، وَهُوَ الْعَذَابُ النَّفْسِيِّ الْمُسْتَمْتِرِ، بِسَبَبِ الشُّعُورِ بِالْحِقَارَةِ وَالنَّقْصِ وَالْخَوْفِ مِنْ اعْتِدَاءِ الْآخَرِينَ. وَالْمَسْكَنَةُ: بِمَعْنَى الْفَقْرِ الشَّدِيدِ وَالْبُؤْسِ وَالتَّعَاسَةِ. ثُمَّ بَدَأَتْ السَّيِّدَةَ زَيْنَبَ بِوَضْعِ النِّقَاطِ عَلَى الْحُرُوفِ مِنْ خِلَالِ خَطْبَتِهَا وَذَلِكَ بِالتَّحَدُّثِ عَنِ الْإِبْعَادِ الْآخَرَى لِحُجْمِ هَذِهِ الْجَرِيمَةِ فَقَالَتْ: (وَيْلَكُمْ يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ! اتَدْرُونَ أَيَّ كَبِدٍ لِرَسُولِ اللَّهِ فَرَيْتُمْ): وَالْكَبِدُ هُنَا كِنَايَةٌ عَنِ الْوَلَدِ وَقَدْ شَبِهَتْ الْإِمَامَ الْحُسَيْنَ بِأَنَّهُ كَبِدَ رَسُولِ اللَّهِ وَشَبِهَتْ قَتْلَهُ بِقَطْعِ كَبِدِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ وَكَمْ يَحْمَلُ هَذَا التَّشْبِيهَ فِي طَيَّاتِهِ مِنْ مَعَانٍ بِلَاغِيَّةٍ وَحَقَائِقَ رُوحَانِيَّةٍ ثُمَّ قَوْلُهَا (وَإِيَّ كَرِيمَةٍ لَهْ أَبْرَزْتُمْ؟) وَيُقَالُ كَرِيمَةٌ<sup>(٢)</sup> الرَّجُلُ : ابْنَتُهُ فَالسَّيِّدَةُ زَيْنَبُ هِيَ بِنْتُ فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ مُحَمَّدِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمُ فَهِيَ إِذَنْ حَفِيدَةُ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ وَالْحَفِيدَةُ تُعْتَبَرُ بِنْتًا لِلرَّجُلِ وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ الْكَرِيمُ يُعْبَرُ عَنِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ مِنْذُ الْأَيَّامِ

(١) سورة البقرة من الآية رقم (٦١) .

(٢) ينظر: القزويني، السيد محمد، خطبة السيدة زينب، ط٣، مؤسسة الاعلمي، (بيروت، ٢١: ١٤٥هـ)

الأولى من ولادتها بكلمة بنتي. وكانت هذه المكرمة المحترمة، تعيش في دارها خلف ستار الحجاب، والعفاف، وتحافظ على حجابها أكثر من محافظتها على حياتها، ولكن أهل الكوفة هجموا على خدرها وخيامها، وسلبوا حجابها، ثم اسروها وابرزوها إلى المأ العام وكانت هذه المصيبة، أشد من جميع المصائب وقعا على قلبها بعد مصيبة مقتل أخيها الامام الحسين عليه السلام. ولتقف قليلا لنفكر ونعرف عظم الفاجعة: إذا كان سلب الحجاب عن امرأة مؤمنة عفيفة عادية اصعب عليها من ضربها بالسكاكين على جسمها، فما بالك بسلب الحجاب عن سيدة المحجبات وفخر المخدرات زينب الكبرى عليها السلام. ولم تقتصر هذه المصيبة على السيدة زينب بل شملت اخواتها الطاهرات من آل الرسول والنسوة اللواتي كن معها في قيد الاسر. وقولها (وأي دم له سفكتم) أتعلمون يا أهل الكوفة أي دم لرسول الله سفكتم فقد اعتبرت السيدة زينب ان الدم الذي سفك من الامام الحسين يوم عاشوراء هو دم رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف لا يكون ذلك ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينزل من المنبر وهو يخطب بالمسلمين من يوم الجمعة ليستقبل الحسن والحسين ويرفعهما على كتفه ويضعهما في الخط الاول من المصلين بالقرب من منبره عليه الصلاة والسلام عندما جاءوا وهم صغار ودخلوا المسجد فرسول الله الذي هو جدهما يقطع الخطبة وينزل من اجل الاخوين الحسن والحسين، ولهذا فإن كل قطرة من دمه الطاهر الزكي كان جزءا من دم رسول الله والحسين هو من اهل البيت واهل البيت كتلة واحدة يوم قال (اللهم ان هؤلاء اهل بيتي وخاصتي وحامتي لخمهم لحمي ودمهم دمي، يؤلمني ما يؤلمهم ويحزنني ما يحزنهم، انا سلم لمن سالمهم، وحرب لمن حاربهم انهم مني وانا

منهم<sup>(١)</sup>. ثم قالت (وأي حُرْمَة له هتكتكم) حرمة الرجل هنا بمعنى ما لا يحل انتهاكه، وحرّم الرجل أهله وهتك الحرمة يعني اهانة رسول الله صلى الله عليه وسلم في قتل ابن بنته الحسين وسبي كريماته وبناته والهجوم عليهم في خيامهنّ بكل وحشية.

لقد كانت المرأة في الاسلام وحتى قبل الاسلام تمتاز بصيانة معينة وكان كل من يهينها يستحقّ الذم واللوم من الجميع ولكن اهل الكوفة وبأمر من يزيد وابن زياد الطاغيتين قاموا بأبشع انواع الجرائم في مجال اهانة رسول الله واهدار كرامته . ثم تقول السيدة زينب عليها السلام وهي تصف هذه الجريمة (لقد جئتم بها) أي بهذه الجريمة البشعة التي لا مثيل لها في تاريخ البشر. ثم قالت (صلعاء) وهي الداهية الشديدة او الامر الشديد ولعل المراد بقولها الجريمة المكشوفة التي لا يمكن تغطيتها والتستر عليها واغفالها لانها هي واضحة كوضوح الشمس في النهار ثم قالت (عقواء)<sup>(٢)</sup> وتعني بذلك أي عنق كل شيء بدايته فلعل المعنى ان هذه الجريمة سوف تكون بداية لسلسلة من الازمات والويلات لكم ، فلا تتوقعوا خيراً بعد عملكم الشنيع هذا، وشوهاء بمعنى قبيحة. (وقمءاء)<sup>(٣)</sup> أي بمعنى العظيمة او الشديدة ولعل معنى قمءاء أي معقدة بشكل لا يمكن معرفة الطريق الى حلها او التخلص من مضاعفاتها.

---

(١) جاء ذلك في الحديث المشهور بـ(حديث الكساء) المروي في كتاب العوالم للمحدث الكبير الشيخ عبد الله البحراني، ج ٢ ص ٩٣٠ والحديث مروي عن الشيخ الكليني بأسناده المعتبرة عن الصحابي الجليل جابر بن عبد الله الانصاري عن السيدة فاطمة الزهراء عليهما السلام (ينظر: السيد محمد القزويني ، كتاب السيدة زينب الكبرى من المهدي الى اللحد ، ط ٣، مؤسسة الاعلمي، بيروت ، ٢٠٠٠م ) ص ٣٢ .

(٢) ينظر: أبو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص ٤٥٨.

(٣) م . ن، ص ٥٠٩.

وتعني بقولها (خرقاء)<sup>(١)</sup> كطلاع الارض أي ملؤها واما قولها (وملء السماء) لعل المعنى ان حجم هذه الفعلة اكبر من ان تشبه او توصف بمساحة او حجم معين، بل هي بحجم الارض كلها والسماء والفضاء كليهما أي ان حجمها اكبر من ان يتصور الانسان كيف لا وان من قتل مؤمناً عالماً او اماماً فكأنما قتل الناس جميعاً.

ثم قالت السيدة الفاضلة (أفعبتكم ان مَطَرَتِ السماء دماً) وعليه فإن بعض المصادر والوثائق التاريخية تصرح بأن السماء امطرت دماً بعد قتل الامام الحسين عليه السلام وروى ذلك ابن عساكر في كتابه تاريخ دمشق قال: حدثتنا ام شرف العبدية قالت حدثتني نضرة الازدية قالت: لما قتل الحسين بن علي مطرت السماء دماً فأصبحت وكل شيء لنا ملآن دماً.

وكذلك ذكر الحافظ محب الدين الطبري الشافعي المتوفى سنة ٦٩٤هـ في كتابه ذخائر العقبى ص ١٤٥ وذكر كذلك أبو نعيم في كتابه دلائل النبوة عن نضرة الازدية إنها قالت (لما قتل الحسين بن علي امطرت السماء دماً فأصبحنا وجبائناً أي آبارنا وجرارنا جمع جرة مملوءة دماً. وعن مروان مولى هند بنت المهلب قال حدثني بواب عبيد الله بن زياد إنه لما جيء برأس الحسين بين يديه رأيت حيطان دار الامارة تسایل دماً خرجه ابن بنت منيع، وعن جعفر بن سليمان قال حدثتني خالتي أم سالم: قالت لما قتل الحسين مطرنا مطراً قطراً كالدم على البيوت والجر قال وبلغني إنه كان بخراسان والشام والكوفة خرجه ابن بنت منيع، وعن أم سلمة قالت "لما قتل الحسين مطرنا دماً، وعن ابن شهاب قال: (لما قتل الحسين رضي الله عنه لم يرفع أو لم يقلع حجر بالشام إلا عن دم) خرجهما ابن السري. كما روى البخاري في ترجمة سليم القاص تحت الرقم ٢٢٠٢ من القسم الثاني من المجلد الثاني من

(١) م. ن، ص ١٧٣.

التأريخ الكبير ج ٤ ص ١٢٩ قال وعن سليم القاص (مُطرنا يوم مقتل الحسين دماً) وروى القندوزي الحنفي في كتابه ينابيع المودة ج ٢ ص ٣٢٠ ذلك.  
وروى ذلك سبط ابن الجوزي في كتابه (مرآة الزمان) ص ١٠٢ وروى ذلك البلاذري في كتابه أنساب الأشراف في الحديث (٥٢) قال: حدثني عمر بن شبة عن موسى بن اسماعيل، عن حماد بن سلمة عن سليم القاص قال: (مطرنا أيام قتل الحسين دماً).

ونذكر القرطبي في تفسيره الجامع لاحكام القرآن ج ١٦ ص ١٤١ (...قال سليمان القاضي: مُطرنا دماً يوم قتل الحسين وكان هذا المطر الاحمر كاعلان سماوي على مستوى الكون لفضاعة حادث قتل الامام الحسين عليه السلام) واستكثروا لهذه الجريمة النكراء ولكن ما اكثر العبر واكل الاعتبار ثم قالت السيدة زينب الكبرى (ولعذاب الآخرة اخزى) أي ان العقاب الصارم لقتلة السيد الامام الحسين عليه السلام سوف لا يقتصر ولا ينحصر بالعذاب الدنيوي والصفعات الدنيوية المتتالية بل ان العذاب الالهي ينتظرهم في الآخرة، ان الدنيا تنتهي ويخرج كل انسان من قاعة الامتحان وعندها يكون المجرمون في قبضة محكمة العدالة الالهية فمن يخلصهم في ذلك اليوم من رسول الله جد الحسين ليطلب من الله ليقتص من هؤلاء، ولكن يذكرني هذا القول بما قاله لاهل مكة الذين اخرجوه من مكة التي كان يحبها اشد الحب وقال حينما خرج منها والله اني احبك ولا اريد ان اخرج منك لولا انهم اخرجوني منك ثم التفت الى جبل احد عن بعد وقال ان احدا جبل يحبنا ونحبه، فجده رسول الله ماذا قال لقريش التي آذته وعذبتة واخرجته من بلده. لقد وقف وقال لهم ماذا تظنون اني فاعل بكم قالوا اخ وابن اخ كريم قال فاذهبوا فانتم الطلقاء ثم قالت وانتم تتصرون أي يوم القيامة لا تجدون من ينصركم ولا من ينجيكم من العذاب الاليم، والمخاصم لأهل الكوفة هو اشرف الخلق، واعز البشر عند الله تعالى، هو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم والمحامي هو جبريل سيد اهل السماء حيث يقف ظهرا لرسول الله في قضية ملف مقتل الامام الحسين عليه السلام ولكن ارادة الله فوق كل ارادة

ونوعية الجريمة وحجمها ومضاعفاتها هل تشتمل العفو والغفران من الله ولا نعلم الغيب والله هو احكم الحاكمين ثم قالت بعد ذلك السيدة زينب الكبرى (فلا يستخفنكم المهل) والمهل بضم الميم جمع مهله وهي بمعنى الانتظار والامهال وعدم العجلة أي لا يصير الامهال والتأخير في الانتقام سبباً لخرة نفوسكم وانتعاشها من الطرب والفرح، وبذلك تأخذكم سكرة الانتصار والظفر فالانتصار الذي يتعقبه العذاب الاليم مع فاصل زمني قصير - لا يعتبر انتصاراً حقيقياً بل هو سراب مؤقت لا يعترف به العقلاء ولكنه سبحانه وتعالى لا يُهمَل وبناءً على هذا لا يكون الامهال سبباً لتصور خاطئ منكم بأن علة تأخير العقاب هي ان الجريمة قد تم التغاضي والتغافل عنها ولسوف تنسى بمرور الايام لانها شيء حدث وانتهى بل مضاعفات لاحقة، او ان الانتقام غير وارد حيث ان الامور قد فلتت من اليد كلا وألف كلا ليس الامر كذلك بل شاء الله تعالى ان يجعل الدنيا دار امتحان لجميع الناس: الاخيار والاشرار وقرر ان يدفع كل من يخالف اوامر الله ضربية مخالفته ان عاجلاً او اجلاً. فعدم تعجيل العقوبة لا يعني ان الامور منفلثة من يد الله الغالب القاهر العلي القدير فهو المهيمن على العالم كله لكنه قد يؤخر الجزاء لاسرار وحكم يعلمها سبحانه فهو لا يُعَجَّل العذاب للعاصين احياناً او غالباً ولكنه بالمرصاد لقوله تعالى ﴿وان ربك لبلمرصاد﴾<sup>(١)</sup> فكما ان الجندي الذي يجلس وراء المتراس يُراقب ساحة الحرب، و ينتظر الوقت المناسب للهجوم او لإطلاق القذيفة، كذلك العذاب الالهي ينزل في التوقيت المناسب مع ملاحظة سائر اسرار الكون ولا مناقشة في الامثال قال تعالى ﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون انما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الابصار مهطعين مقنعي رؤوسهم لايرتد اليهم طرفهم﴾<sup>(٢)</sup> وقد روي عن الامام علي عليه السلام انه قال (ولئن امهل الله الظالم فلن يفوت اخذه وهو له بالمرصاد على مجاز طريقه وبموضع الشجا

(١) سورة الفجر آية رقم (١٤) .

(٢) سورة ابراهيم آية رقم (٤٢، ٤٣) .

من مساعٍ ريقه<sup>(١)</sup> ثم قالت السيدة زينب عليها السلام (فإنه لا يحفزُهُ البِدَار) ويحفزه<sup>(٢)</sup> يقال تحفزَ في مشيه أي جدَّ واسرع فهو محتفز أي مستعجل والحفز: الاعجاب في الامر للبطش وغيره .

والبِدَار<sup>(٣)</sup> هنا يقال: بَدَرَ الى الشيء مبادرةً وبداراً يعني اسرع وبدر فلاناً بالشيء عاجله به فهي تعني انكم يا اهل الكوفة انه اذا لم ينزل عليكم العذاب الالهي ليس سببه الاهمال فأن الله تعالى لا تدفعه العجلة الى انزال العذاب لان الحكمة الالهية تجعل اطراً للمقدرات الكونية ومنها اختيار التوقيت المناسب لنزول العذاب واختيار نوعيته هذا اولا وثانياً ان الرسول صلى الله عليه وسلم طلب من ربه او سأل ربه ان لا يُعاجل امته بالعذاب في الدنيا واستجاب الله له فجعل من القوانين الكونية عدم نزول العذاب الغيبي على الامة الاسلامية في الدنيا كرامةً واحتراماً لرسول الله وهذه الكرامة لم تكن لغير نبي الاسلام وخاتم الانبياء والرسل من الامم السالفة والانبياء السابقين في الزمن. فمعنى قول السيدة زينب (فإنه لا يحفزُهُ البِدَار) أي بمعنى لا يحدث الله سبحانه شيء على تعجيل العقوبة والانتقام لوجود اسباب واسرار كونية ولعدم خوف انفلات المجرم من قبضة العدالة الالهية ونقرأ في الدعاء (ولا يمكن الفرار من حكومتك) والمرصاد أي المَكْمَن وهو المكان الذي يختفي فيه عن اعين الاعداء بانتظار التوقيت المناسب للهجوم او الدفاع.

(١) ينظر: ابن ابي الحديد ، شرح نهج البلاغة ص ١٤١ خطبة (٩٧) .

(٢) ينظر: ابو بكر الرازي ، مختار الصحاح ، ص ٦٣٨ .

(٣) ينظر : م . ن ، ص ١٤٤ .

## نص خطبة السيدة زينب برواية اخرى .

روى الشيخ الطبرسي في كتاب الاحتجاج نص الخطبة مع وجود بعض الفروق بين النسختين. قال حذيم الاسدي: لم أر - والله - خِفرةً قط انطقَ منها، كأنها تَتَطَقُّ وتَفْرُغُ على لسان علي عليه السلام وقد اشارت الى الناس بأن انصتوا، فارتدت الانفاس وسكنت الاجراس، ثم قالت: بعد حمد الله تعالى والصلاة على رسوله: (أما بعد، يا أهل الكوفة، يا أهل الختل والغدر والخذل<sup>(١)</sup> ألا فلا رقات العبرة ولا هدأت الزفرة. انما متلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعدة قوة انكاثا، تتخذون ايمانكم دخلاً بينكم، هل فيكم الا الصلف والعجب، والشنف، والكذب، وملق الاماء وغمز الاعداء، او كمرعى على دمنة او كفضة على ملحودة، الا ببس ما قدمت لكم انفسكم ان سخط الله عليكم وفي العذاب انتم خالدون. اتبكون اخي؟ أجل والله فابكوا فانكم اخري بالبكاء، فابكوا كثيراً وضحكوا قليلاً فقد ابليتُم بعارها، ومُنيتُم بشنارها، ولن ترحضوها ابداً، واتى ترحضون قتل سليل خاتم النبوة، ومعدن الرسالة، وسيد شباب أهل الجنة، وملاذ حربكم، ومعاذ حزبيكم ومقر سلمكم وآسي كلمكم، ومفزع نازلتكم، والمرجع إليه عند مقاتلتكم، ومدرة حُججكم، ومنار محبتكم، ألا ساء ما قدمت لكم انفسكم، وساء ما تزررون ليوم بعثكم، فتنساً تنساً!! ونكساً نكساً!! لقد خاب السعي وتبت الأيدي، وخسرت الصفقة، وبؤتُم بغضب من الله وضربت عليكم الذلة والمسكنة، أتدرون - ويلكم - أي كبير لمحمد صلى الله عليه وسلم الله عليه وآله وصحبه وسلم فرثتُم؟ وأي عهد نكثتُم؟ وأي كريمة له ابرزتم؟ وأي حرمة له هتكتُم؟ وأي دم له سفكتُم؟ لقد جنتُم شيئاً اداً. تكاد السموات يتفطرن منه وتتشق الارض، وتخرّ الجبال وهدايا؟ لقد جنتُم بها شوهاً، صلعاء، عنقاء، سواداء، ققماء، خرقاء، كطلاع الارض، او ملء السماء أفعبجتُم ان تمطر السماء دماً، ولعذاب الاخرة اخزي

(١) الخذل هنا بمعنى ترك النصرة والاعانة: أي ترك عونته ونصرته ينظر : ابو بكر الرازي ،

وهم لا ينصرون، فلا يستخفكم المهل، فإنه "عزّ وجل" لا يحفره البدار، ولا يخشى عليه فوت الثأر، كلا ان ربك لنا ولهم ليلمرصاد، ثم انشأت تقول عليها السلام.

ماذا تقولون اذ قال النبي لكم

ماذا صنعتم وانتم اخر الامم

بأهل بيتي واولادي وتكرمتي

منهم اسارى ومنهم ضُر جوا بدم

ماكان ذاك جزائي اذ نصحت لكم

ان تخلفوني بسوء في ذو رحمي

اني لاخشى عليكم ان يحل بكم مثل العذاب الذي اودى على ارم

ثم ولت عنهم ... ) الى آخر الرواية<sup>(١)</sup> ومن خلال المقابلة والمقاربة بين هاتين الروايتين توجد هناك بعض الفروق والزيادات والاضافات بين الرواية لبشير بن حزيم الاسدي الذي اعتمد عليها السيد ابن طاووس في كتابه الملهوف والراوي هنا ممن عاصر الامام علي عليه السلام وسمع عنه وهو شاهد عيان لاحداث سنة ٦١هـ وهي مقتل سيدنا الحسين عليه السلام، والرواية الثانية يرويها حزيم الاسدي وهو أيضاً حسب ما ذكره الشيخ الطبرسي في كتابه الاحتجاج ممن عاصر الامام علي بن أبي طالب وسمع كلامه وممن عاصر الأحداث التي عاشها في مقتل الحسين عليه السلام سنة ٦١هـ في العاشر من محرم، وعليه فأقول اني وجدت بعض هذه

(١) ينظر: الشيخ الطبرسي ، كتاب الاحتجاج ، ج٢، ص ص ٣٠٤-٣٠٥ .

الاضافات ومنها الأبيات الشعرية الأربعة والأخيرة التي ذكرت في آخر خطبة زينب والتي اعتمد على هذه الرواية الشيخ الطبرسي في كتابه الاحتجاج ان هذه الأبيات هي ليست لزينب وإنما نسبت إليها، وقد وجدت هذه الأبيات في تاريخ الرسل والملوك للطبري في ج ٥ ص ٤٦٦-٤٦٧ وكذلك وردت عند المصعب الزبيدي، في كتابه نسب قريش الجزء الثالث ص ٨٤-٨٥ بأن هذه الأبيات قد قالتها زينب بنت عقيل بن أبي طالب التي خرجت على الناس بالبيوع وهي تبكي قتلاها بالطف كما اني وجدت ان هذه الخطبة هي نفس خطبة أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب عليه السلام حينما خاطبت اهل الكوفة سنة ٦١هـ بعد قتل اخيها الحسين رضي الله عنه، وسأذكر نص خطبتها اذ قالت (ابدأ بحمد الله والصلاة والسلام على نبيه: اما بعد: يا اهل الكوفة يا اهل الختر والخذلان، فلا رقأت العبرة، ولا هدأت الرنة، انما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثاً، تتخذون ايمانكم دخلاً بينكم، إلا وهل فيكم إلا الصلف والشنف وملق الاماء، وغمز الاعداء، وهل انتم إلا كمرعى على دمنة، وكفضة على ملحودة، ألا ساء ما قدمت انفسكم ان سخط الله عليكم، وفي العذاب انتم خالدون، أتبكون؟ أي والله فأبكوا، وانكم والله احرياء بالبكاء، فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً فلقد فزتم بعارها وشنارها ولن ترخصوها بغسل بعدها ابداً<sup>(١)</sup>.)  
وعليه فإن هذه الخطبة وردت في كتاب اعلام النساء في عالمي العرب والاسلام لمؤلفه عمر رضا كحالة يذكر ان هذه الخطبة هي لأم كلثوم جـ٤ ص ٢٥٥-٢٥٦، وكذلك ذكرها ابن سعد في الطبقات الكبرى عند ترجمته لأم كلثوم بنت علي عليه السلام جـ٨ ص ٤٦٣ بأن هذه الخطبة هي لأم كلثوم أيضاً وكذلك ورد في

(١) ينظر: ابي سعد، الطبقات الكبرى، م ٨ ص ٤٦٣، ابن طيفور، ابو الحسين عبيد الله بن احمد (ت ٣١٥هـ / ٩٢٦م) بلاغات النساء ص ٢٧. عمر رضا كحالة، اعلام النساء في عالمي العرب والاسلام ط ٣، = مؤسسة الرسالة، بيزوت ١٩٧٧م، ج ٤ ص ص ٢٥٥-١٥٦  
(٢) اينعت بمعنى نضجت، شبه رؤوس العصاة بالثمار الناضجة التي حان قطفها. ينظر: أبو بكر الرازي، ص ٧٤٥.

بلاغات النساء لابن طيفور ص ٤٢، نص هذه الخطبة لأم كلثوم وليس لزَيْنب كما ذكر الشيخ الطبرسي في كتابه الاحتجاج من انها وردت عند ابن طيفور في كتابه بلاغات النساء ص ٤٢ وربما وقع الشيخ الطبرسي في وهم ولبس حينما نسبها إلى زينب وابن طيفور هو اقدم من الشيخ الطبرسي وعليه فإني أرجح ان هذه الخطبة هي لأم كلثوم بنت علي ابن أبي طالب رضي الله عنه.

## الحجاج بن يوسف الثقفي

### نموذج من خطبه

خطب اول مقدمه العراق بالكوفة، فقال:

أنا<sup>(١)</sup> ابن جلا وطلاع الثنايا متى اضع العمامة تعرفوني

والله- يا اهل العراق- اني لأرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها<sup>(٢)</sup>، واني لصاحبها، وكأني انظر الى الدماء بين العمائم واللحي. ابن جلا<sup>(٣)</sup>: علم محكي وهو رجل مشهور بالفتك والبيت لسحيم وهو شاعر مخضرم أي بمعنى انا كابن جلا في الغارة والشدّة، أو ابن رجل جلا الامور وكشف الصعاب والثنايا، طرق الجبل ومنعطقاته، والعمامة من معانيها خوزة الحرب ووضعها: جعلها على الرأس استعدادا للحرب. ووضع العمامة ايضا خلعا وكانت عادة العرب ان يلوّث طالب الثأر العمامة على رأسه، ويخرج للاخذ بثأره فأذا ادركه وضع العمامة وقد استشهد الحجاج بهذا البيت وهو يزيح لثامه عن وجهه.

(١) ينظر: اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٩١ القلقشندي ، صبح الاعشى ج ١ ص ص ٣١٩-٣٢٠ جواد ، مصطفى ، (الدكتور) الاساس في تأريخ الادب العربي ط٤، الشركة الاسلامية للطباعة والنشر، (بيروت ، ١٩٥٧م) ص ٣٠٣ .

(٢) القلقشندي، صبح الاعشى ج ١ ص ص ٣١٩-٣٢٠ ، د.مصطفى جواد ، الاساس في تاريخ الادب العربي، ص ٣٠٣ .

هذا اوانُ للشَّدِّ<sup>(١)</sup>، فاشتدي (زِيم)

قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بِسَوَاقِ حُطٍّ

ليس يراعي إيْلٍ ولا غَنَمَ

ولا بجزارٍ على ظَهْرٍ وضمِّ

قد لَفَّهَا اللَّيْلُ بَعْصَلِي<sup>(٣)</sup>

أرُوْحَ خَراجٍ مِنَ الدَّوِيِّ

(٤) الشد بمعنى العدو وزيم هو اسم ناقة او فرس والسواق الحطم أي المشتد في السير الى غايته

قالها في شريح بن ضبيعة وقد غزا اليمن فغنم وسبا ثم ضل وهو راجع ، فساق بأصحابه سواقا  
عنيفا حتى نجوا . (ينظر: ابن منظور، لسان العرب، م ٣، ص ٢٣٤)

(٥) الوضم : بمعنى الخشبة التي يقطع عليها اللحم والمراد هنا انه ليس بضعيف الشأن كهذين ،  
الراعي والجزار . ينظر: م . ن ، م ١٢ ، ص ٦٤ .

(٦) العصلبي : بمعنى الشديد القوي الصعب والاروع بمعنى الذكي والدوي بمعنى الصحراء لا علم  
بها ولا اماره ، والدو : الصحراء والمراد انه متغلب على الشدائد ومتخلص من كل صعوبة .  
ينظر ، ابو بكر الرازي ، مختار الصحاح: ص ٣٦٤

مُهَاجِرٍ (١) لَيْسَ بِأَعْرَابِيٍّ

قَدْ شَمَرَتْ عَنْ سَاقِهَا، فَشَدَّوْا

وَجَدَّتِ الْحَرْبُ بِكُمْ فَجَدَّوْا

وَالْقَوْسُ فِيهَا وَتَرَّ عُرْدٌ

مِثْلَ زِرَاعِ الْبَكْرِ أَوْ أَشَدُّ

لأبْدُ مَا لَيْسَ مِنْهُ بُدُّ

اني والله- يا اهل العراق، ما يَقَعُّعُ (٢) لي بالشَّنَانِ ولا بَعْمَزِ جَانِبِي (٣) كَتَغْمَازِ التَّيْنِ، ولقد فُرِّرْتُ (٤) عن ذِكَاءِ، وَفَتَشْتُ عَنْ تَجْرِيَةِ، وان امير المؤمنين - اطال الله بقاءه- نَتَّلَ كَنَانَتَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَعَجَمَ عِيدَانَهَا، فوجدني امرها عوداً واصليها مكسراً. فرماكم بي، ولانكم طالما اوضعتم في الفتنة، واضطجعتم في مراقد الضلال والله لاحزمنكم حَزَمَ السَّلْمَةِ (٥)، ولاضربنكم ضرب غرائب الابل، فانكم لكاهل قريه كانت

(١) قال في لسان العرب : كل من اقام من العرب بمباديهم او حواضرهم ولم يلحقوا بالنبي ولم يتحولوا الى امصار المسلمين التي احدثت في الاسلام اوان كانوا مسلمين فهم غير مهاجرين وليس لهم في الفقه نصيب. ويسمون الاعراب:م،ن،ص،٦٩٠

(٢) القعقعة : صوت الجلود اليابسة والشنان جمع شن وهو الجلد اليابس أي لا يفزعه ما يفزع سواه من الضعفاء. (ينظر: أبو بكر الرازي، ص ٥٤٥).

(٣) أي انه صلب العود ، معروف بذلك ، فلا داعي لاختبار حقيقته . (ينظر: ابن منظور، لسان العرب، م، ٥، ص ٣٨٩-٣٩٠)

(٤) فر الدابة أي كشف عن اسنانها لمعرفة عمرها والمراد هنا التعرف الي واختياري عن فطنة. ينظر: أبو بكر الرازي، ص ٤٩٤.

(٥) السلمة هي شجرة شائكة يعمر خرط ورقها فتعصب اغصانها وتخبط بالعصا ليسقط فتأكله الماشية ، وضرب غرائب الابل لانها تضرب عند الهرب او الخوض. (ينظر: م ، ن ، ص ٣١١).

أمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، فكفرت بأنعم الله، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون - والله - ما أقول الا وفيت ولا اهُم الا امضيت، ولا اخلق<sup>(١)</sup> الا فريت وان امير المؤمنين امرني باعطائكم أعطيائكم، وأن اوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن ابي صفرة، واني اقسّم بالله لا اجذُر رجلاً تخلّق بعد عطائه ثلاثة ايام الا ضربت عنقه<sup>(٢)</sup>.

### دراسة ونقد وتحليل وتعليق

هذه الخطبة من خطب الحجاج بن يوسف التقي ايام ولايته العراق لعبد الملك<sup>(٣)</sup> بن مروان وهي كما نرى تغلب<sup>(٤)</sup> عليها فخامة التركيب، وانتماء الغريب وارهاب السامع بالزجر والوعيد، والاستشهاد بالرجز وغريب الشعر، لبعث المهابة والرهبّة في نفوس السامعين وهي - بعد - تعبر عن نفسية الحجاج وعنفه وسياسته القائمة على الشدة والبطش، حيث تولى الحجاج العراق بعد قضائه على ابن الزبير في مكة وهو يموج بالفتن والعصيان والتقمة على الامويين، فأراد عبد الملك ان يرمي به العراق بعد ما خبر من دهائه وحزمه واقدامه وقسوته ليقر الامور فيه، فيأمن هذا الجانب ، فساسه بالعنف، ونفر مقاتلته مع المهلب لحرب الخوارج بعد ما

(١) اخلق أي بمعنى اقدر ، وضربت بمعنى قطعت . ينظر: أبو بكر الرازي، ص ١٨٧.

(٢) المهلب بن ابي صفرة : ابو سعيد قائد اموي ولد بالبصرة ونشأ فيها سنة ٥٧هـ واشتهر بمقاتلة الخوارج فلم يكن أشد منه عليهم، ولاء الحجاج حربهم وجعله عامله على خراسان توفي سنة ٨٢هـ / ٧٠٢م. ينظر: الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص ١٩. ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج٢، ص ١٤٥..

(٣) عبد الملك بن مروان بن الحكم الاموي القرشي ابو الوليد ولد سنة ٢٦هـ / ٦٤٦م ونشأ في المدينة فقيها واسع العلم انتقلت اليه الخلافة بعد وفاة ابيه سنة ٦٥هـ توفي بدمشق سنة ٨٦هـ / ٧٠٥م ينظر اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٨٨-١٩٧. الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص ١٩.

(٤) ينظر: المبرد، الكامل في اللغة والادب، ج١، ص ١٨١. الدكتور محمد طاهر دروش، الخطابة في صدر الاسلام، ج٢، ص ٣٤٧-٣٤٩.

اعطاهم كامل اعطياتهم فهدأت به الاحوال، وكسر شوكة الخوارج وثبت ملك بني امية ومدّه شرقاً الى تخوم الصين وكان اختيار عبد الملك للحجاج ليضطلع بهذه المهمات اختياراً فيه التوفيق للسياسة الاموية، وكان الحجاج قبل ذلك يطمح الى هذه الولاية الكبرى، فإنه بعد ان قضى على ابن الزبير في الحجاز، كتب الى عبد الملك (اني وقد حزت الحجاز بشمالي، وبقيت يميني فارغة ) فبعث اليه بعهد العراق. والذي تقوم عليه شخصية الحجاج في سياسة الحكم هو طاعته المطلقة لسادته والاخلاص في خدمتهم، وطموحه الى عليا المراتب، وضبط الامور ولو عظم في ذلك الثمن وذلك هو سر اخذه الناس بالقسوة وقد نجد لهذه الخصائص امثلة من نواحي سيرته واعماله، فمن ذلك انه لم يرتض لنفسه البقاء في الطائف بلدته التي فيها ولد ونشأ، يعلم بها الصبيان، كما كان يصنع ابوه من قبل بل رمت همته الى الشام، دار الخلافة وقبلة انظار الطامحين والطامعين، فانتظم في شرطة روح بن زبناغ الجذامي وزير عبد الملك بن مروان ، فعرف فيه مضاء العزم وحسن التدبير فقدمه لعبد الملك، فوكل اليه ضبط عسكره الذي سيّره لقتال زفر بن الحارث وكان قد انحاز لابن الزبير، فقام بذلك قياما لفت اليه نظر عبد الملك، فولاه بلدة تدعى (تباله) من اعمال اليمن فسار اليها، حتى اذا قاربها استصغرها اذ كان يحجبها عن النظر نل صغير، وعاد مستعفيا عبد الملك ولايتها، وقد قيل في ذلك (اهون من تباله على الحجاج)، وظل ملازماً مركز لخلافة حتي اذا اراد عبد الملك ندب الناس لقتال ابن الزبير في الحجاز بعد القضاء على اخيه مصعب في العراق لم يجد خيراً من الحجاج فولاه الحجاز سنة ٧٥هـ بعد القضاء على ابن الزبير ثم ضم إليه العراق، وظل

يعمل في خدمة الامويين لعبد الملك ولابنه الوليد<sup>(١)</sup> من بعد حتى وفاته سنة ٩٥هـ — ودفن بواسط وهي المدينة التي انشأها في العراق وعمرت بعده دهرا طويلا. ويعد الحجاج من ابلغ الخطباء في الامة العربية في العصر الاموي وهو ثالث ثلاثة طبعوا الخطابة العربية طابعها القوي: اولهم علي بن ابي طالب، وثانيهم زياد بن ابيه، وكان من الفصحاء الذين لم يؤخذ عليهم لحن قط قال الاصمعي (اربعة لم يلحنوا في جد ولا هزل: الشعبي، وعبد الملك بن مروان، والحجاج بن يوسف، وابن القريّة والحجاج افصحهم) ولنشأته في الطائف ومخالطته البدو الضاربين حولها اثر في هذه الفصاحة. ومن اعماله المأثورة بنقط<sup>(٢)</sup> القرآن الكريم حين كثر الخطأ في التلاوة، اذ كان نقط ابي الاسود الدؤلي<sup>(٣)</sup> على عهد زياد بن ابيه لم يمنع التحريف والتصحيف واللحن (الجارف في دير السمعان في البصرة في خلافة عمر بن عبد العزيز) فاستدعى من ائمة العربية والقراءة يحيى بن يعمر العدواني<sup>(٤)</sup> ونصر بن عاصم الليثي<sup>(٥)</sup>، فوضعا الاعجام (نقط قسم من الحروف تميزا لها مما يشبههم في الرسم)

(١) الوليد بن عبد الملك : هو الوليد بن عبد الملك بن مروان و امه ولادة بنت العباس ، أبو العباس من ملوك الدولة الاموية في الشام ولي الخلافة بعد وفاة ابيه سنة ٨٦ هـ مدة خلافة ٩ سنين و ٨ أشهر ونقش على خاتمه يا وليد انك ميت توفي سنة ٩٦هـ / ٧١٥م (ينظر: اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ٢٧، ابن الاثير، الكامل في التاريخ ج ٥ ص ٣).

(٢) ينظر الدكتور محمد بهجة الاثري ، الاساس في تاريخ الادب العربي ص ٣٤.

(٣) ابو الاسود الدؤلي: هو ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل الدؤلي الكناني واضع علم النحو وهو من التابعين نقط القرآن الكريم بأمر من علي بن ابي طالب توفي سنة ٦٩هـ في الطاعون الجارف في دير السمعان بالبصرة في خلافة عمر بن عبد العزيز. ينظر : ياقوت الحموي معجم الادباء ج ٢ ص ١٢. ابن خلكان وفيات الاعيان ج ٢ ص ٥٣٥

(٤) يحيى بن يعمر العدواني: هو يحيى بن يعمر الدمشقي العدواني، أبو سلمان: أول من نقط المصاحف ولد بالاهواز وسكن البصرة وكان من علماء التابعين عارفا بالحديث والفقه ولغات العرب من كتاب الرسائل الديوانية أدرك بعض الصحابة وكان فصيحا ينطق بالعربية المحضنة وصحب يزيد بن المهلب إلى خراسان سنة ٨٣هـ — ولي القضاء بمرو توفي سنة ١٢٩هـ / ٦٣٠م ينظر: ابن خلكان ، وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٢٦. الزبيدي، محمد بن محمد (ت ١٢٠٥هـ / طبقات النحويين واللغويين، ص ٢٢، اليافعي، مرآة الجنان، ج ٢، ص ٢١

(٥) نصر بن عاصم الليثي الزبيدي، هو نصر بن عاصم الليثي من أوائل واضعي علم النحو قال عنه ياقوت كان فقيها، عالما بالعربية من فقهاء التابعين توفي بالبصرة عام ٨٩ (ينظر: ياقوت الحموي، معجم الادباء، ج ٧، ص ٢١٠. الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين ج ٢ ص ٢١٠).

ودفعا لالتباس هذا النقط بنقط الاعراب الذي وضعه ابو الاسود حول نقط الاعراب الى الحركات والسكون المتبعة الان. ولهذا فأننا حين نقرأ هذه الخطبة ونمعن النظر فيها وندقق ونستنتج ونحلل نجد انه من الواضح كل الوضوح ان الحجاج كان يعد هذه الخطبة الضربة الاولى في اول جولة له مع اهل العراق، وان اثارها ستحدد طريقه، وتكشف له موقفه، فان فاءت عليه بثمره طيبة فقد تبدت له بوادر الامل في نصر على هؤلاء الشاغبين، الذين استسرى داؤهم وعز دواؤهم، ولاحت له بشائر النجاح في سياسة اهل العراق الذين استعصت رياضتهم من اجل ذلك حشد لها ما نرى من عزيمته وسطوته، وافرغ فيها ما استطاع من بيانه وبلاغته، واحاطها بألوان من تهاويل الاخراج، يعلى بها شأنها وشأنه ويعز جانبها وجانبه، ويعمق أثرها وأثره في النفوس، ويأخذ بها على الناس أبصارهم وأسماعهم وأنفاسهم، فالخطبة تعلن عن بطش الجبارين، وبأس الطغاة الظالمين، اهل الجراءة والسطوة والشدة والتجربة والذكاء والمرارة والصلابة والعنف والقسوة، الذين لا يعرفون الا ضرب الاعناق المتطاولة، وقطف الرؤوس المونعة، وازهاق الارواح واراقة الدماء بين العمائم واللى.

وهي تعلن ايضا عن سياسته، اذ يجزي الشر بمثله ويزيد ويلحو الناس لحو العصا، ويقرعهم قرع المروءة، ويعصبهم عصب السلمة، فان لم يستقيموا على الحق اذاقهم عذاباً اليماً حتى يشغل كل امرئ منهم بما ابتلى به في جسده عن امر غيره ويأمرهم بالعدول عن تشفيع الشفعاء، وعقد الاجتماعات، والرواح والغدو في الجماعات، والقال والقيل، والدخول فيما لايعني وان يتوجهوا لقتال عدوهم بعد اخذ اعطياتهم، فمن تأخر بعد ذلك ثلاثاً سفك دمه، وانهب ما له، وهدم منزله وتركه كأس الدابر، واقسم بالله قسماً مؤكداً على مضية في ذلك وانفاذه، فإنه لا يعد الا وفى، ولا يهم الا امضى ولا يخلف الا فرى. وقد نجح الحجاج في عرض نفسه وسياسته بهذه

الخطبة، وكان اعتماده في هذا النجاح على عاملين هامين: قدرته البلاغية واستعانتته  
 بالموثرات المختلفة. فقد دخل الكوفة في اثني عشر راكبا وفي هذا من دلائل  
 الاعتزاز بالنفس والثقة بها، والاستهانة بالناس ما فيه، وفيه ايماء بأنه فوق ان يخشى  
 واعظم من ان ينال منهم بمكروه، وقد اعتم بعمامة خز حمراء غطت اكثر وجهه،  
 وتلثم، وتقلد السيف وتكعب القوس وقعد فترة صامتا على المنبر، والناس ينقلون  
 الطرف في هيئته، ويعجبون لصمته، فلما تجمعت حواسهم عنده، وشخصت ابصارهم  
 اليه، نفص عنه الصمت، واسمعهم ذلك الكلام العجيب، فكان للكلام عنفه وقوته،  
 واسره وبلاغته، وقد استهله بذلك الشعر الغريب، وحشد فيه تلك الاستعارات العجيبة،  
 والصور المفزعة المتعاقبة والجمال الزاجرة القاهرة، تشبه الصخور المنحدرة، وتمثل  
 الويل والبلاء والدمار والفناء، وشفع ذلك بأقتباس آيات الانذار والتهديد والوعيد مع  
 حسن الديباجة، وعلو النغمة والتقل من معنى لآخر، يشبهه في جزالة لفظه ورصانة  
 عبارته والخاصة في الزجر والتفريع والتهديد، والنفس ممتد، وقوة البيان تزداد،  
 والعاطفة تدفع، حتى انتهى من كلامه اقوى منه حين بدأه، عندئذ خشعت القلوب  
 والاصوات، وادرك اهل الكوفة انهم عند أمير جبار عنيد، يسفك الدماء ويظلم العبيد،  
 لا يقع له بالشنان، ولا يغمز جانبه كتغماز التين فهذه المؤثرات المختلفة من حال  
 قَدَمته وهيئته وتسلحه وجلسته، ومن اجلابه على الناس بخطابته، في زجرها  
 ووعيدها والفاظها وعباراتها، واستعاراتها، وصورها، وشعرها وقرآنها، الى ما

عرف عنه من حسن تفصيله للكلام وجودة منطقته فهذا مالك بن دينار<sup>(١)</sup> قال: "ما رأيت احداً أبين من الحجاج انه كان ليرقى المنبر، فيذكر احسانه الى اهل العراق، وصفحه عنهم، واساءتهم اليه، حتى اقول في نفسي: اني لاحسبه صادقا، وانني لأظنهم له ظالمين"<sup>(٢)</sup>.

وكل ذلك كتب له النجاح، وكتب على اهل العراق الاذعان وتأثير الخطيب بصوته في الجماهير امر مقرر ويقول الدكتور طه حسين (فالخطابة تلذنا عندما نسمع صوت الخطيب، والتشكيلات المختلفة التي يشكل بها هذا الصوت، ونرى هذه الحركات المتباينة التي يتحركها الخطيب مرة بيده، ومرة بجسمه كل هذه تصحب الكلام فتقوي لذته الفنية، بحيث لا تكون اللذة واحدة اذا سمعنا الخطيب، او قرأناه، ونحن نعلم ان من اشهر خطباء الثورة الفرنسية من كان يلهب الجمهور بخطبه، التي ربما كان السخف فيها اكثر من الكلام الممتع)<sup>(٣)</sup> فلا جدال في ان الحجاج كانت له شخصية قوية فذة وانه كان باطشا جبارا وانه خطيبا مفوها، ولكن عوامل الاثارة والتأثير المختلفة لها شأنها الكبير في المواقف الخطابية ولا يصح اغفال جانبها بحال من الاحوال. واذا دققنا لكي نقف وقفة عند خطبة الحجاج السابقة لننظر في بنائها، ومدى توفقه الى الاحسان فيها واول ما يلاحظه الدارس ان هذه الخطبة ليست محكمة البناء والتأليف، ولم يجر في صياغته لها على النظام المألون، كما فعل زياد بن ابييه

(١) مالك بن دينار: هو مالك بن دينار البصري، أبو يحيى من رواة الحديث، كان ورعا زاهداً يأكل من كسبه ويكتب المصاحف بالاجرة توفي في اليصرة سنة ١٣١هـ/٧٤٨م. قال المعتمر عن ابيه سليمان (ما رأيت احداً قط ازهد من مالك بن دينار). (ينظر: ابو نعيم الاصبهاني، حلية الاولياء ج ٢ ص ٣٥٧. ابن الجوزي، صفة الصفوة ج ٣ ص ٢٣٦. ابن خلكان، وفيات الاعيان ج ١ ص ٤٤٠ ابن حجر العسقلاني تهذيب التهذيب ج ١٠ ص ١٤-١٥).

(٢) ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين ج ١ ص ١٥٥.

(٣) ينظر: طه حسين، الشعر والشعراء، ص ٤١.

في خطبته البتراء حين قسمها فقرا، كل فقرة قامت بغرض خاص وصالحت لان تكون خطبة مستقلة في ذلك الغرض فهذه الخطبة للحجاج تناولت بالكلام ثلاثة معان، الاول ذكره حال اهل العراق وما عنده من جزاء لها، وعقاب عليها، والثاني عرضة نفسه وحديثه عنها وتهديدهم بسطوته، وقدرته على البطش بهم والثالث أمرهم بالتوجه لقتال الاعداء، وما اعده من الفتك بالمتخلفين، ولكنه لم يجر في عرض هذه الامور على النظام المفروض، من استيفائه الكلام في كل معنى او غرض قبل الانتقال الى غيره، وترتيب اجزاء القول على ما ينبغي ان يكون عليه، فبدأ بالعرض الاول وهو تصويره لما هم فيه، ثم انتقل الى الغرض الثاني، حتى اذا ما عن له العدول الى غيره تركه الى الغرض الثاني وهو الحديث عن نفسه وتجاربه، وموابهه، ثم عاد الى الغرض الاول، حتى اذا عن له العدول الى غيره تركه الى الغرض الثاني، ثم تمم الكلام بعد هذا وذاك بالعرض الثالث وهو أمرهم بالقتال والتوجه الى الاعداء وهو في كل مرحلة من هذه المراحل يقرن قوله بالتهديد والوعيد، والانذار بالاخذ الشديد. وكان في استطاعته ان يبدأ بغرضه الاول حتى اذا استوفاه انتقل الى تاليه، ثم ينتهي كما انتهى بما امرهم به من القتال، فهذا التنسيق يكسب الكلام جمالا ويمنح الخطبة قوة، يستكمل عناصر التأثير بها، ويحمل السامعين على التتبع والتركيز وادراك مرامي الخطيب وتمام الانفعال بما يسمعون وحتى لا تهبط الخطابة الى مستوى المحادثة، ولكنها على كل حال تدل دلالة واضحة على شخصية الحجاج، وجبروته وعنف سياسته كما تدل على فصاحته وبلاغته. وهي معرض لضخامة الالفاظ، وقوة العبارات، والتهويل ما شاء التهويل بصور العذاب والهالك والبوار والدمار حشدت فيها هذه الصور، مشفوعة مما اعان على جلائها من تشبيهات، واستعارات، وشعر غريب رهيب، وآيات انذار ووعيد، مع السجع المقبول والازدواج وتساوي الفواصل. ولا شك فيه ان الحجاج عنى عناية فائقة بتنسيق خطبته، واضفى عليها من ضروب التجويد، والوشي والزخرفة ما نهض بها الى هذا المستوى الرفيع، فكانت صورة ادبية رائعة تمثل السياسة والحكم اصدق تمثيل.

## عبد الملك بن مروان

### نموذج من خطبه

دخل عبد الملك بن مروان الكوفة بعد قتل مصعب بن الزبير سنة ٧١هـ فحمد الله واثنى عليه، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال: ايها الناس: ان الحرب صعبة مرّة، وان السلم أمنٌ ومسرّة، وقد زبنتا<sup>(١)</sup> الحرب، فعرفناها والفناها، فنحن بنوها، وهي امنا. ايها الناس، فاستقيموا على سبيل الهدى ودعوا الاهواء المردية وتجنبوا فراق جماعات المسلمين، ولا تكلفونا اعمال المهاجرين الاولين وانتم لا تعلمون اعمالهم، ولا اظنكم تزدادون بعد الموعظة الا شراً. ولن تزداد بعد الاعذار اليكم والحجة عليكم الا عقوبة فمن شاء منكم ان يعود بعد لمثلها فليعد، فانما مثلي ومثلكم كما قال قيس بن رفاعه<sup>(٢)</sup>

مَنْ يَصِلْ نَارِي بِلَا ذَنْبٍ وَلَا تِرَةٍ

يَصِلْ بِنَارِ كَرِيمٍ غَيْرِ غَدَارٍ<sup>(٣)</sup>

(١) زبنتنا وزبناها دفعتنا ودفعناها والزبن بمعنى الدفع، ينظر: ابو بكر الرازي، مختار الصحاح ص ٢٦٨.

(٢) قيس بن رفاعة الانصاري: شاعر جاهلي مقتدر وحكيم اقام علاقات وطيدة مع ملوك المناذرة في العراق وكذلك الغساسنة في الشام قبل الاسلام (ينظر: القيرواني زهر الاداب ج ١ ص ٦٨. الراوي، ياسين، (الدكتور) معجم الشعراء في لسان العرب، ط١، دار العلم للملايين، بيروت، (١٩٨١م) ص ص ٥١٩-٥٢٠).

(٣) ينظر: الجاحظ البيان والتبيين ج ٢ ص ٨٥، ابو علي القالي، الامالي، ج ١ ص ١٢، ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٢ ص ١٤٣.

## دراسة وتحليل الخطبة<sup>(١)</sup>

وكان طبيعياً ان نستمتع الى عبد الملك يخطب بلغة الظافر المنتصر، الذي صحب الحروب، وقاسى صعيبها ومرها، ومنحته ودها ونصرها، وان يتجه الى الناس فيدعوهم الى الاستقامة على سبل الهدى، فقد رأوا كيف تردي المطامع والاهواء، اربابها، ويجر فراق جماعات المسلمين الى الهوان والهلاك وليحف لهم بالاستقامة ما كان للسلف الصالح فليس لهم ان يطلبوا معاملة المهاجرين الاولين، وهم لا يعلمون اعمالهم، فأنما الجزاء من جنس العمل، ثم انتقل عبد الملك الى التقرير والتهديد، والانتذار والوعيد، فليس لهم بعد الاعذار والحجة الا العقوبة، فمن شاء ان يعود لمثل ما مضى فليفعل فستدور عليه الدائرة، وسيقيم عوجه، ويدرك عنده ثاره، ولن يبقى منه إلا ذكره السيء الملعن، يلهو به المقيم والمدلج الساري، وتمثل في ذلك بقول الشاعر وبهذا اشارت الخطبة الى ما كان من اهواء وفتنه وفراق للجماعة و حرب كُتِبَ لعبد الملك فيها النصر، وقد عكس هذا النصر ظلاله على الخطبة، فبدأ فيها عز المنتصر، وادلاله وقوته وتأديبه وتهديده، وبدأ عبد الملك خليفة لا يطغيه النصر ولا يحمله على القهر والبطش، فهو رزين حكيم مصلح جعل من الحادث عبرة، ومن النصر على العدو زاجراً، وتقدم للناس بالموعة، وقرن النصيحة بالندير والوعيد، وختم قوله ممتثلاً بالشعر، فكان موقفاً في ذلك، اسعفته ثقافته ومعرفته بما يطابق الحال، ويناسب الموقف من الشعر، ولعل اول الخلفاء الامويين الذين نحووا هذا المنحى في خطابتهم، وللشعر في الاستشهاد به اثر عميق، يزيد الكلام بهجة، ويمنحه قوة، ويحمل النفوس على الارتياح اليه، والافتتاع به وليس هذا غريباً على عبد الملك، فقد عرف بغزارة العلم وسعة الاطلاع والدراية، وكان مجلسه منتدى العلماء والادباء والشعراء.

(١) ينظر: القالي، الامالي في اللغة، ج١، ص١٢. القلقشندي، صبح الاعشى في صناعة الانشاء، ج١، ص٣١٦.

والخطبة سهلة الالفاظ والعبارات، قريبة المعاني تخاطب العقول والقلوب جميعا، فيها السجع والازدواج وان علب عليها الترسل.

وهذا نموذج آخر لإحدى خطبه بمكة حيث قال: (أيها الناس، اني والله ما أنا بالخليفة المستضعف<sup>(١)</sup> ولا بالخليفة المداهن<sup>(٢)</sup>، ولا بالخليفة المأفون<sup>(٣)</sup>، فمن قال برأسه كذا، قلنا له بسيفنا كذا<sup>(٤)</sup>)<sup>(٥)</sup>

### عمر بن عبد العزيز<sup>(٦)</sup>

#### نموذج من خطبه

ان عمر بن عبد العزيز كان امة وحده، اعاد سيرة الخلفاء الراشدين بعد ذهابها واقتدى بجدته عمر بن الخطاب رضي الله عنه فجمع العدل والتواضع والنزاهة والرحمة والزهد والتقوى والورع والعفة والسهر في صالح الرعية. اهتم عمر بن عبد العزيز بدعوة الناس الى التقوى والعمل الصالح، وسمعنا منه ما سمعناه من ابن الخطاب في الحث على اصلاح السرائر، والتزامه بوضع الحقوق مواضعها وارتفع

(١) يقصد به عثمان بن عفان رضي الله عنه .

(٢) يقصد به معاوية بن ابي سفيان .

(٣) يقصد به يزيد بن معاوية ، والمأفون أي الضعيف العقل والرأي. ينظر: أبو بكر الرازي. مختار الصحاح، ص ١٩

(٤) ينظر: ابن عبد ربه ، العقد الفريد ج ٢ ص ١٤٢ و ٢٦٣ .

(٥) الجاحظ، البيان والتبيين ، ج ٢ ص ٨٥ ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد ج ٢ ص ١٤٢ . احمد زكي صفوت ، جمهرة خطب العرب ج ٢ ص ١٩٢ رقم ١٦٦ .

(٦) عمر بن عبد العزيز : هو عمر بن عبد العزيز بن مروان وامة ام عصام بنت عاصم بنت عمز بن الخطاب (رض) ولد سنة ٦١ للهجرة ٦٨١م تولى الخلافة سنة ٦٩ هـ قال عندما توفي علي زين العابدين بن الحسين (ع) ((ذهب سراج الدنيا وجمال الاسلام وزين العابدين)) وتوفي سنة ١٠١ للهجرة ودفن بدير سمعان ، ينظر اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ص ٢١٠-٢١٦ ، ابن الجوزي ، سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٥٣ و ٥٦ ، المسعودي مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ١٦٨ .

على لسانه الصوت الذي خفت منذ أيام ابي بكر الصديق وعمر رضي الله عنهما (انه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) قال عمر بن عبد العزيز (اوصيكم بتقوى الله فان تقوى الله خلف من كل شيء، وليس من تقوى الله عز وجل خلف، واعملوا لآخرتكم، فانه من عمل لآخرته كفاه الله تبارك وتعالى امر دنياه، واصلحوا سرائركم يصلح الله الكريم علانيتكم، واني والله لا اعطي احداً باطلاً، ولا امنع احداً حقاً، اني لست بخازن ولكني اضع حيث امرت، الا لاطاعة لي عليكم<sup>(١)</sup>) ويستمر عمر في اعلان دعوة الخلفاء الراشدين، واحياء السنن والشعائر الدينية والنبوية فيقول ما قاله ابو بكر وعثمان رضي الله عنهما (وانما انا متبع، ولست بمبتدع<sup>(٢)</sup>)، وقولهما (اني وليت عليكم ولست بخيركم) ولهذا قال عمر في خطبته الا اني لست بقاضٍ، ولكني منفذ لله، ولست بمبتدع ولكني متبع، الا انه ليس لاحد ان يطاع في معصية الله عز وجل، الا اني لست بخيركم، وانما انا رجل منكم غير ان الله جعلني اتقاكم حملاً<sup>(٣)</sup>.  
 وأحيا منطق الدين وروحه في خطبة حيث قال:

(ألا لا سلامة لامرئ في خلاف السنة، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق،  
 الا وانكم تعدون الهارب من ظلم امامه عاصياً، الا وان اولاهما بالمعصية الامام  
 الظالم)<sup>(٤)</sup>.

(١) ينظر: ابن الجوزي ، سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٥٣ .

(٢) ينظر: ابن عبد ربه الاندلسي ، العقد الفريد ج ١ ص ٢٧ ، المععودي ، مروج الذهب ج ٢ ص ١٦٨ ، ابن الجوزي ، سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٥٦ ، وهذه الخطبة تبين ان المصدرين الرئيسين للشريعة الاسلامية هما الاول القران الكريم والثاني السيرة النبوية الشريفة وهذا من قواعد اصول القانون، أحمد زكي صفوت ، جمهرة خطب العرب ج ٣ ص ١٢٨ رقم ١١٨ .

(٣) ينظر: المسعودي ، مروج الذهب ج ٢ ص ١٦٨ ، ابن الجوزي ، تحقيق : محب الدين الخطيب ، مطبعة المؤيد مصر ، ١٣٣٨م ص ٥٦ و ١٩٨ .

(٤) ينظر: ابن قتيبة، عيون الاخبار ج ٢ ص ٣٤٣ ، ابن الجوزي ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ٥٦ و ١٩٨ ، بن عبد ربه، العقد الفريد ج ٢ ص ١٤٣ .

وفي خطبته<sup>(١)</sup> هذه متمتع رحب للافاضة وللإفصاح عن عنايته الواضحة بأحياء معالم الدين وشرائعه وسنته وكانت ساحة عمر بن عبد العزيز سوقاً نافعة للوعظ والإرشاد والهداية ورفع منار الدين فكان يبث الوعظ ويتقبله ويطلبه ولهذا قرب العلماء والمصلحون والوعاظ والزهاد وكبار المتصوفة كالحسن البصري<sup>(٢)</sup> وعبد الله بن الأهم<sup>(٣)</sup>.

وقال عمر بن عبد العزيز في إحدى خطبه (أيها الناس انكم لم تخلقوا عبثاً ولم تتركوا سدى) وان لكم معاداً يحكم الله فيه بينكم، فخاب وحز من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء، وحرّم الجنة التي عرضها السماوات والأرض. واعلموا ان الأمان غداً لمن خاف ربه، وباع قليلاً بكثير، وفانياً بباقي، الا ترون انكم في اسلاب الهالكين وسيخلفكم من بعدكم الباقون حتى تردوا الى خير الوارثين ثم انتم في كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً الى الله قد قضى نحبته وبلغ أجله، ثم تغيبونه في صُذع من الأرض ثم تدعونه غير موسّد ولا مهّد، قد خلع الاسباب وفارق الاحباب، وواجه الحساب، غنياً عما ترك فقيراً الى ما قدّم، وايم الله اني لا اقول لكم هذه المقالة وما اعلم عند احد منكم من الذنوب اكثر مما عندي فاستغفر الله لي ولكم...

(١) ينظر: ابن قتيبة، عيون الاخبار ج ٢ ص ٣٤٣

(٢) ينظر: الاصبهاني، حلية الاولياء وطبقات الاصفياء، ج ٢ ص ١٣١ الذهبي، ابو عبد الله محمد بن احمد ت ٧٤٨هـ/١٣٤٨م، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تحقيق: محمد علي الجاوي، دار احياء الكتب العربية، مصر ١٩٦٣م، ج ١ ص ٢٤٥.

(٣) عبد الله بن الأهم هو عبد الله بن عبد الله بن الأهم وكان خطيباً ذا مقامات ووفادات من بني منقر وقد ولي خراسان ووفد على الخلفاء وخطب عند الملوك ومن ولده شبيب بن شبيه وعبد الله وخاقان بن الأهم، (ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين ج ١ ص ٣٥٥. ابن عساکر، تهذيب التهذيب، ج ٤، ص ٣٠٧).

ثم قال وهي آخر خطبة له خطبها في خنصرة<sup>(١)</sup> (٢) وما تبلغنا عن احد منكم حاجة يتسع لها ما عندنا الا سدناها، ولا أحد منكم الا وددت ان يده مع يدي، ولحمتي الذي يلونني حتى يستوي عيشنا وعيشكم، وايم الله اني لو اردت غير هذا من عيش او غضارة<sup>(٣)</sup> كان اللسان مني ناطقا ولا، عالما بأسبابه، لكنه مضى من كتاب الله ناطق وسنة عادلة، دل فيها على طاعته ونهى فيها عن معصيته) ثم بكى، فتلقى دموع عينيه بطرف من ردائه.

---

(١) خنصرة بلد بالشام من اعمال حلب .

(٢) ينظر: الجاحظ، البيان والتبيين ، ج ٢ ص ٩٨. الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ٨ ص ١٤٠ ،

ابن عبد ربه، العقد الفريد ج ٢ ص ١٤٤ ، ابو الفرج الاصفهاني، الاغانى ، ج ٨ ص ١٥٣ .

(٣) الغضارة بمعنى السمعة والنعمة والخصب. ينظر: ابو بكر الرازي، مختار الصحاح، ص ٤٧٦ .